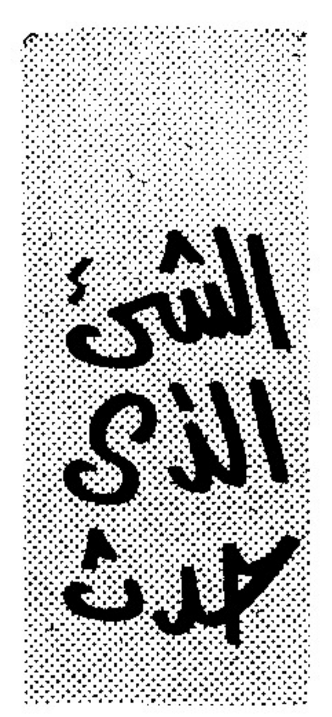
الشئ الذي حدث

قصص سودانية

الطيب زروق

Zuraiq, al-Sayyid

ad-Šay' al- [illegible]



قصص سودانية

الطيب زروق

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧٠



صيد السمك في يابوس

أخيراً وصلنا الى يابوس بعد رحلة شاقة استمرت ما يزيد عن ثلاث ساعات . كان الطقس حارا يصعب احتماله ، ولكن كل شيء يهون في سبيل تمضية عطلة نهاية أسبوع مليء بالعمل المرهق الذي يحرق الأعصاب ، ويحيل الانسان الى مجرد شيء يضيق ويتأفف ويتذمر .. وعطلة أسبوعية في مثل هذه الظروف ، تعتبر بحق نعمة كبيرة ، ومكافأة عظيمة القيمة يجب أن تقدس وأن تحترم وأن تستغل الى أحسن ما يكون الاستغلال .

هبطنا من العربة ، ونفضنا الغبار الذي علق بثيابنا ، ومن فورنا توجهنا الى استراحة القرية حيث جلسنا على المقاعد وأخذنا ننظر الى خور يابوس .

كان منظر الماء وهو يجري متدفقا أمامي في عظمة وهدير عنيف ، كفيلا بأن يجعلني أحس بسعادة جمة وشعور بالراحة

لا يخفي الصخور الرمادية الملســاء التى كانت تطل على الخور ، اكسبته منظرا خلابا يثير العاطفة ويؤكد ما للطبيعة من سحر اخاذ لا يمكن مقاومته •

بقيت بمفردى هكذا متأملا فيما حولى وقد أخذ قرص الشمس الأصفر فى الغروب •• ولمحت فتاتين من قبيلة الكوما تحمــل كل منهما صفيحة على رأسها وهما تسيران تجاه الخور •• الجسم الفارع الشبه عار يتراقص من تلقــاء نفســه ، عقــود الخرز الملون تغطى الرسغين ، الخطوات الواسعة لا تتعثر أبدا رغم أن الطريق المؤدى الى الخــور يبدو شـــديد الانحــدار ، العينــان تنظران الى الأمام ولا تنظران الى الخلف الا للحظة قصــيرة تعودان بعدها للنظر الى الأمام •

هذا المشــهد ، رغم بســاطته المتناهية ، كان يجعلنى أحس بنشوة كبيرة وصفاء ذهنى لا مثيل له •

أبصرت الفتاتين وهمــا تملآن صفيحتيهما من ماء الخور وقد انحنتا الى الأمام ممــا جعــل ردفيهما يبــدوان كصخرتين رماديتين صغيرتين تغريان كثيرا باللمس ومداومة النظر •

نهضت واقفا فى الحال واتجهت اليهما وأنا لا أخفى شــعورا بالفــرحة كان يتملكنى ، وعندما اقتربت منهما انتفضتا فى ذعر ، وأوشكت صفيحتا الماء ان تنقلب على كوبرى الصخر الصغير ••• ولكن ابتسامتى شجعتهما وجعلتهما تطمئنان على وجودى•• تحدثت

احداهما الى الأخرى وهى تضحك بين كل كلمــة وآخرى •••
وردت عليها الثــانية (وكانت طويلة ذات ساقين ممتلئتين وصــدر بارز) بصوت ناعم تخلله ضحك كثير •

قلت لهما :

ـ ازيكم •

ولم أســمع منهمــا غير « القــرقرة » وتلك الرطانة الحــلوة الغريبة . وفى لمح البصر أبصرتهما تصــعدان المنحــدر فى سرعة أذهلتنى • وما هى الا ثوان قليلة حتى رأيتهما تختفيان خلف بعض الصخور المحوطة بالأشجار •• وضحكت على نفسى وأخذت أتمشى على شاطىء الخور الصغير • ومضت نصف ساعة أبصرت بعدها ولداً يرتدى سروالاً قصــيرا من الدمور ويحمل فى يده ســنارة صيد طويلة •• ومر بجانبى دون أن يلتفت الى • ثم جلس فوق احدى الصخور المتراكمة فى جانب الشاطىء وقد ألقى بطرف الخيط الى الماء •

الآن بدأ الظلام ينتشر رويدا رويدا ، وأخــذ هواء خفيف يهب من الشرق •• وظللت واقفا أنظر الى الولد (لم يكن عمره يتجاوز الثانية عشرة) وأنا أعجب من قوة صبره وشدة اصراره ••
اقتربت منه فى خطوات بطيئة وجلست الى جانبه •• ورفع رأسه ونظر الى بعينين واسعتين •

قلت له :

ـ اسمك شنو يا ولد ؟

وأجابني وهو ينظر الى الماء :

ـ وينقو ..

وعدت أسأله مرة أخرى :

ـ من الكوما ..

ـ آ أي ..

ـ انت ما بتخاف تقعد هنا براك عشان تقبض سمك ؟

ـ انا ما بخاف ..

ـ طيب انت ...

وقطعت كلامي صرخة الفرح المفاجئة التي انطلقت بغتة من حنجرته . رأيته يرفع سنارته من الماء ويهزها الى أعلى في الهواء وقد تدلى منها بياض كبير .

أنا نفسي أحسست بالفرح مثله ، ونهضت واقفا الى جانبه وحاولت أن أمسك بالسمكة لأخلصها ، ولكنه صاح في محذراً :

ـ لا ! بتعضيك .

وأخذ يضرب بها الأرض في سرعة حتى ماتت تماما . ثم خلصها من الصنارة ورماها في قفة صغيرة كانت بجانبه .. وأعد

الصنارة من جديد وعاد الى جلسته القديمة دون أن يفتح فمه ..
ولكنى قلت له :

ـ اسمع يا وينقو . أنا برضـه عايز أقبض سـمك ، لكن ما عندى سنارة .

ورأيته يشير بيده تجاه الاستراحة وهو يقول :

ـ هناك فى أساكر .. هناك أنت تمشى ... هم يدوك ... أندهم كثير .

قلت له وأنا أستعد للذهاب الى الداخل :

ـ خلاص ، كويس .. بكرة نجى نقبض سمك سوا .. مع السلامة .

ولم يقل شيئا ولم يلتفت الى وأنا أذهب ، ظل على جلسـته تلك ينظر الى الماء حينا والى القفة التى رقدت فيها سمكته حينا آخر .

***

فى صباح اليوم التالى استيقظت مبكرا .. (وفى يابوس لا بد أن تستيقظ مبكرا قبل الشروق ان كنت ترغب حقـا فى الاستمتاع بالطبيعة الساحرة فى ذلك المكان المجهول من بلادنا ..) واتجهت من فورى الى الخور وأنا أحمل سـنارة استعرتها من أحد رجـال البوليس هناك .. وما ان وصلت حتى وجدت صديقى الكوماوى

الصغير جالسا فوق صخرته الصغيرة ينظر الى الماء فى ترقب وصنارته فى يده •

ـ ازيك يا وينقو •

ولم يرفع رأسه لينظر الى ، بل قال فى صوت خفيض :

ـ أهلا ••

ـ قبضت كم سمكة ؟

ـ ثلاث •

ـ انا جيت عشان أصيد سمك معاك •

وأخذت أجهز السنارة وأنا فى غاية السرور • لم اكن أتصور اننى سأعود مرة أخرى الى ممارسة هوايتى القديمة التى هجرتها منذ خمسة عشر عاما ، ولكن الانسان ـ غريبة ـ لا يعرف أبدا •

اتخذت نفس جلسة وينقو ، ولكن على بعد منه ، وألقيت بالخيط فى الماء ، وأشعلت سيجارة وانتظرت •• وما هى الا لحظات قليلة حتى أبصرت فتاتى الأمس بصفيحتيهما وجسديهما العاريين وهما تسيران تجاه الكوبرى •• وما ان لمحتانى حتى أخذتا تضحكان جذلتين •• وسمعت وينقو يقول :

ـ ديل اخوات بتاه أنا ••

وقلت له :

ـ اخوات بتاع انت سمحات •

وابتسم فى سرور •

ومضت ربع ساعة •• وكما حدث بالأمس ، أبصرت وينقو يقفز من الفرع وقد تدلت سمكة كبيرة من خيط صنارته •• وفى خبرة ومهارة صياد عجوز أخذ يخلص السمكة فى هدوء ثم يضعها داخل قفته •• وابتسم لى وكأنه يقول : « أرأيت ؟ ان حظى حسن للغاية » •

أما أنا فيبدو أن الحظ لم يكن معى •• اذ مضت ربع ساعة أخرى دون أن أصطاد سمكة واحدة •

رغم أن الوقت أوشك أن يصبح نهارا الا أن الطقس ظل على جماله ، والهواء الرطب كان يغرينى بأن أبقى فى مكانى هذا أطول مدة ممكنة • ولكن احساسى بأن عطلة نهاية الأسبوع قد انقضت ، وان على أن أعـود مرة أخـرى الى كرمك حيث العمـل المرهق والطقس الردىء •• هذا الاحساس كان يجعلنى أقل استمتاعاً بتلك اللحظات المتبقية من عمر رحلتنا القصيرة •

التفت الى وينقو •• رأيته يضع سمكة أخرى فى القفة وهو لا يكف عن الغناء بصوت خفيض •• انتابنى شعور غريب فى تلك اللحظة •• أقرب الى الغيرة •• ولـكن هل حقيقـة كان كذلك ؟ وابتسمت لنفسى فى سخرية ، وعاودت الصيد •

ومضت نصف ساعة أخرى دون أن أحظى بشيء من سمك يابوس المشهور بينما كانت قفة وينقو تمتلىء وتمتلىء ••• كنت فى حيرة •• سمك البلد يذهب لأبناء البلد وكأن السمك يعرف اننى لست من أبناء يابوس •• المكان واحد ، والسنارتان لا تختلفان عن بعضهما ، والطعم واحد (طعم صنارتى أخذته من وينقو ، كان عبارة عن قطعة صغيرة من امعاء طائر الكوير) •• ومع ذلك هو حسن الحظ وأنا سىء الحظ !!• وبدا لى أن وينقو قد علم بما كان يدور فى ذهنى ، اذ التفت الى وقال من خلال ابتسامته الكبيرة التى اظهرت اسنانه اللامعة :

ـ انت ما تأرف تقبض سمك يا زول ؟

ـ انا ما بعرف اقبض سمك • انت تعرف كويس •

وضحك الصغير وقد سر لحديثى :

ـ أنا أأرف كويس ؟ ها ! ها ! أنا أنت تقـــول أنا آأرف كويس ؟ ها ! ها !

ووقف على قدميه وهو يحمل قفته الصغيرة وقد امتلأت تماما بشتى أنواع السـمك ، وســار فى طريقه الى داخل القرية وهو لا يكف عن النظر الى قفته •

لم أمكث فى مكانى بعد أن غادرنى وينقو • فقدت الرغبة فى الصيد ، بل تركت السنارة مكانها وأنا ألعن السمك وكل ما ينتمى الى فصيلته •• فليهنأ أصدقائى بكرمك •• لقد وعدتهم ببياض وبلطى كثير ، ولا أشك فى أنهم يحلمون الآن بعشاء لذيذ من السمك المقلى والمشوى ولا أدرى ماذا ••• مساكين ، فليأكلونى !

فى مساء نفس اليوم تأهبنا للسفر •• أعددنا العربة لرحلة الساعات الثلاث التى تنتظرنا •• ما ان أوشكت الشمس على المغيب حتى كنت جالسا فى المقعد الأمامى وأمامى خور يابوس بهديره وزرقته الصافية • ولمحت فتاتى الكوما •• الصفيحتان على رأسيهما وخطواتهما الواسعة تسير تجاه الخور •• وما ان اقتربتا منه حتى توقفتا وأخذتا تنظران ناحية الاستراحة لوقت غير قصير وقد ارتسم وجوم على وجهيهما اللامعين •• لم أسمع ضحكاتهما القصيرة المرحة ، بل أبصرتهما تملآن الصفيحتين بالماء ثم تصعدان المنحدر فى طريقهما الى القرية •

ادار زميلى موتور العربة •• وعندما لمحت الفتاتين تمران بجانبى لوحت لهما بيدى •• وفجأة أبصرت وينقو وهو يعدو تجاه

العربة فى سرعة شديدة ••• وما ان اقترب منى حتى مد لى يده مودعا •

ـ أنا جبت السمك ده أشان أنت !

وأمسكت أصابعى بالقفة وبداخلها هدية السمك •

وعندما تحركت العربة كنت أرى فى المرآة العاكسة صورة وينقو وهو يلوح لى بيده مودعا •

الـــــوجـــــه

عندما فتح لى والدى الباب ، ورفعت رأسى لأنظر اليه ، أحسست بأن فى الأمر شيئا •

كان الوقت بعد منتصف الليـــل بقليـــل ، وكنت قد حضرت لتوى من اجتماع للطلبة •• رأسى مزدحم بشتى الأفكار ، والجوع يكاد يطحن أمعائى ، اذ أننى لم أتذوق الطعام منذ صباح ذلك اليوم •• أوصلتنى سيارة أحد الأصدقاء الى هنــا وأنا فى غاية الاعيــاء والتعب ، لا أكاد أتبين موضع قدمى الداميتين •• ورغم هــذا فقد كنت حقيقة أحس براحة نفسية عميقــة تسرى فى كل جــزء من كيانى •• السرور الذى كنت أشعر به كان من الصعب اخفاؤه رغم مظاهر التعب البادية علىّ •• لم يكن مصدر ذلك الفرح هو نجاح اجتماعنا الطويل الذى استمر عدة ساعات ، فالنجاح كان شيئا مؤكدا وطبيعيا ، ولكن الروح الجديدة التى اكتسبناها والتى تقمصت كلاً منا ، كانت فى الواقع مصدر تلك السعادة •

ومع ذلك ، احضر الى المنزل فأرى والدى بوجهه العابس ونظراته القاسية التى كان يحدجنى بها وكأننى ارتكبت أعظم اثم يمكن أن يرتكبه الانسان .

لم أفتح فمى ، فلم يكن عندى ساعتها ما يمكن أن اقوله ، فأنا أعرف والدى جيداً .. أعرف صرامته وحزمه وتمسكه باكثر الأساليب رجعية فى معاملة الأبناء .

قال لى وهو يشير بيده الى داخل المنزل :

ـ ادخل !

ثم أغلق الباب .

دهشت وأنا أرى أمى وأخوتى جالسين فى كامل يقظتهم وقد بدا على وجوههم جزع شديد . ما ان رأتنى أمى حتى نهضت واقفة واقتربت منى فى خطوات سريعة وأخذت تعانقنى فى لهفة :

ـ لماذا تسبب لنا كل هذا يا بنى ؟ لماذا لا ترحمنى وترحم نفسك ؟

تخلصت منها فى رفق وأنا أقول فى مودة :

ـ ما الأمر يا أمى ؟ تأكدى أن ليس هناك ما تخشينه .

وهنا تدخل والدى كما يفعل دائما وصاح فى وجهى :

ـ أين كنت حتى هذا الوقت ؟ تكلم !

ومع أنه كان يعرف أننى سوف « أتكلم » ، الا أنه ظل يردد فى قوة : تكلم ! تكلم ! قالها بطريقة أثارتنى الى حد كبير ، ولكنى تمالكت أعصـــابى وضبطت نفسى بقـوة ارادة لا أعرف من أين جاءتنى •

أخيرا قلت له فى برود :

ـ كنت فى اجتماع مع بعض أصدقائى الطلبة •

ومضت لحظات لم يفتح فيها أى منا فمه بكلمة •• لزمت امى الصمت كما تفعل دائما عندما يتحدث والدى •• وانكمش اخوتى فى فراشهم وهم يتوقعون شرا وشيك الوقوع •• أما أبى فقد كان جامدا ، هادئا فى مظهره ، ولكنــه ـ دون شــك ـ كان يغلى من الداخل •

قال :

ـ ألم أمنعك من حضور مثل هذه الاجتماعات ؟

ـ نعم • ولكن •••

ـ ولكن ماذا ؟

ـ ولكن لم أستطع •••

واقترب منى وقد ضاقت عيناه من الغضب :

ـ اذن فأنت لا تهتم بما أقول ؟

قلت وقد أصبحت لهجتى شبه حادة :

ـ ليس الأمر كما تعتقد ، ولكن بصراحة •••

وقاطعنى فى حدة :

ـ هل تعتقد أنك الوطنى الوحيد فى هذا البلد ؟ ماذا تعرفون عن الوطنية ؟ الوطنية ليست اجتماعات وقرارات •••

ولم يتوقف •• أخذ يتحدث والزبد يتطاير من فمه عن معانى الوطنية والحرية •• لم أقاطعه ، تركته يتكلم وأنا أنصت •• ومع ذلك استمر يطلق قذائفه :

ـ انك الرجل الوحيد بعدى فى هذا البيت •• أليس كذلك؟ انظر الى اخوتك •• انظر اليهم ••

ونظرت اليهم •• أربعة أطفال تبرق عيونهم فى خوف وقد التصقوا بعضهم ببعض ، وأمهم لا تقل عنهم خوفا وقد لزمت مكانها بركن الحجرة ترقب ما يحدث فى صمت •

كنت أعرف أنه من العبث محاولة مناقشة هذا الرجل •• انه يعيش فى عالم آخر لا يمت الى عالمنا وحاضرنا بصلة •• وتحسرت، وبدا أمامى كل شىء مظلما وكئيبا •

أخذت طريقى الى فراشى وأنا أحلم بصباح الغد • ماذا يحدث يا ترى لو علم والدى ؟•

وكان الصباح .

خرجت من المنزل وقدماى تقودانني الى الجامعة .. وهناك رأيت الألوف من الوجوه وقد ارتسم عليها تعبير واحد : الاصرار. أخذ قلبي يدق فى سرعة .. الدموع تملأ عينى ... شفتاى ترتجفان ، وشيء لا ادرى طبيعته يدفعنى الى الأمام وأنا لا اقاوم بل كنت أجد لذة غريبة فى ذلك وأنا أتقدم .. اتقدم . ووجدت نفسى غارقا فى بحر من البشر .. بحر لا حدود له .. كنت اشك فى حقيقة ما تراه عيناى . لم أصدق .. ولكن كان لا بد أن أصدق ما أراه .. كانت الجماهير منتشرة على مدى البصر . اصناف كثيرة من الناس كانت تقف هناك تلوح بأيديهما وتزمجر وتهتف ... كنت صامتا فقد أخذتنى رهبة الموقف وجلاله .. رحت أنظر الى الوجوه وأتفرس فيها وأفحص ملامحها ، أنظر الى الشفاه وهى تنفرج فتخرج الهتافات مدوية من بينها ، ثم تعود فتنضم مرة اخرى، وتتقلص زاويتا الفم بما يكسب الوجه صرامة وخشونة . وأنظر الى العينين وهما تضيقان عند بداية الهتاف ثم تبرقان عندما يتغير الهتاف الى آخر أقوى وأكثر تعبيرا عن سابقه . كان عالما عجيبا مدهشا عشت فيه بكل خلية حية فى جسدى النحيل .

الوجوه هى التى كانت تجذبنى وتشدنى اليها .. كان يخيل الى أننى أعرف كل وجه هنا .. الأصوات المبحوحة وهى تنطلق من الحناجر كانت تهزنى وتملؤنى طربا .

كانوا يزحفــون وأنا معهم . لم أكن أدرى الى أى شــارع وصلنا وفى أى منعطف توقف سيرنا .. كنت أسير وألوح بساعدى الأيمن والهتاف ينطلق من فمى فى قوة غريبــة تعجبت لها أشــد العجب ، فما كنت أعتقــد أن حنجرتى يمكن أن تصنع مثل تلك الأصوات القوية الجبارة .

عدت أنظر الى الوجوه .. وجوه صــغيرة تقاطيعها منســقة حلوة ، وجوه هرمة اكتست بتجعدات كثيرة متشعبة .. وجوه شابة تفيض حيوية واشراقا .

وتقدمت مع الجموع .. الوجــوه تمر أمامى فسبقتنى وأنا أتفرس فيها كالمشدوه .. كالتائه .. أبصرت وجــوها رأيتها من قبل ، صادفتها في وقت ما مصــادفات عابرة فى الطريق ، وجــوه لا تربطنى بهــا أية صلة ، أما الآن فأحس وكأننى عشت مع تلك الوجوه ســنين طويلة .. كأننى أعرفها منذ أن وجدت على ظهر هذه الأرض .. هذا الوجه ! أين رأيته ؟ متى ؟ ولمحت وجها وديعا يسبح فى العرق .. كان وجه فتاة انحسر الثوب عن رأسها فبان رأسها وجزء من عنقها وخيوط العرق تنســاب عليــه .. الخناجر لا تكف عن الهتاف .. الوجوه تتلاطم .. السواعد تلوح فى غضب .. وفجأة أبصرت الوجه !!.

أبصرت الوجه !

أبصرت وجهه !

وجمدت !

كان وجه والدى •• العينان الواسعتان بحاجبيهما الكثيفين•• الأنف الضخم •• الشارب الكبير الأسود •• الجرح القديم بالخد الأيسر الذى اكتسى بندبة سمراء عند أحد أطرافه •

وقفت فى مكانى وقد تملكنى احساس مبهم غريب •• كنت نهبا لشتى الانفعالات التى لم أستطع تحديد ماهيتها وخطورتها •• كان هناك شىء يتغلغل فى أعماقى فيثير فى نفسى كل ما يمكن ان تثيره رؤية الخير والجمال فى الانسان •

وقفت فى مكانى أرقب الجموع وهى تختفى عن بصرى ••• وقفلت راجعا الى المنزل وأنا أقول لنفسى فى خبث : « ابى هنـاك معهم » •



لم أتوقع أن يحضر كل ذلك الحشدالى المحطة لاستقبالى عمى الرشيد فى القدمة بجلبابه الأبيض وعمامته الملفوفة بعناية حول رأسه ومركوبه الفاقع الأحمرار ، وعصاه الغليظة التى كانت تلمع من بعيد وكأنها عمود من الذهب الخالص ••• وخلفه ابنه الكبير سعد بابتسامته الكبيرة ووجهه الصبوح الذى لا تمل اطالة النظر اليه • وبجانبه شقيقه بشرى بقامته القصيرة وهو يتطاول بعنقه فى محاولة للتغلب على قصره حتى يرانى قبل أن يتوقف القطار تماما •• ورأيت أيضا كثيرين من أقاربى الذين لم أعرف تماما حقيقة قرابتهم ، حضروا كذلك لاستقبالى والترحيب بى •

قابلونى بالعناق وبحرارة شديدة كان لها أعظم الأثر فى نفسى •• وجلست بجانب عمى فى سيارة الأجرة •• وكان لا يكف لحظة عن سؤالى عن صحة أبى وأمى وأخوتى ونحن فى طريقنا الى منزله•

ثمانية أعوام مضت منذ أن حضرت الى هنا •• كنت فى رحلة مدرسية قصيرة مدتها أسبوع ••• وكنت وقتها فى قمة سعادتى ؛ فبالاضافة الى ما كانت تضيفه الرحلة على نفسى من بهجة وسرور، أحسست بأن وجودى بين عمى وأبنائه له سحر خاص ودلالة كبيرة •• ومضى ذلك الأسبوع فى سرعة مذهلة ، ولكنه كان بحق اسبوعا رائعا لا يمكن أن ينسى •

ومضت ثمانية أعوام رأيت خلالها ابن عمى سعد عدة مرات، اذ كان يحضر الى العاصمة لشئون تتعلق بتجارة والده فيمكث معنا بضعة أيام يعود بعدها الى بلدته •• والحق كان سعد شابا لطيفا حلو الخصال •• كان فى مثل سنى ، وكنا نقضى معا أجمل الساعات وأمتعها كلما جاء لزيارتنا •

وأتممت دراستى الثانوية بنجاح باهر مما دفع والدى لأن « يأمرنى » فى حماسة بأن أسافر الى أبناء عمى وأقضى معهم شهرا من الأجازة الصيفية •• ولم تكن حماستى بأقل من حماسة أبى • دون تردد اعدت ملابسى وودعت الأهل وتوجهت الى المحطة •

***

ووصلت السيارة الى المنزل •

لم يتغير هيكله عن ذى قبل •• نفس الجدران القصيرة والنوافذ الخشبية الخضراء التى بدت وكأنها طليت من جديد، والباب

الحديدى الأخضر بعتبة الأسـمنت العـالية ، وقطع الصـدف ذات الأشكال المختلفة والتى تحيط به من كل جانب فتكسبه جمالا غريبا يصعب فهمه أو تحديده •

فى الداخل قابلتنى زوجة عمى بحفاوة بالغـة ووجه ضاحك بشوش •• وأجلسونى على مقعد مريح وأخذوا يتحدثون الى فى ود وصفاء ويسـألوننى للمـرة المائة عن أحـوال اخوتى وأهلى ، ويهنئوننى بنجاحى العظيم فى الدراسة •

كانت جلسة عائلية لطيفة انستنى تعب السفر وسهر ليلة كاملة فى قطار مزدحم صاخب •• عمى يحكى حكاية عن أحد أصدقائه وينفجر ضاحكا بين كل عبـارة وأخـرى فنضحك نحن فى خبث لطريقة ضحكه وليس لما يقصه علينا من نوادر وقفشات •• وزوجة عمى تدخـل بين لحظة وأخـرى وهى محملة بالفواكه والشـــاى والقهوة ، وسعد يربت على ظهرى ويقول : « ازيك يا راجل • شنو الحكاية ؟ » وبشرى الصغير لا ينقل عينيه عن وجهى وكاننى مخلوق غريب لا يشبه الانسان فى شىء •• وكما يحدث دائما فى كل جلسة تضم مجموعة من الناس ، جاءت لحظة صمتنا فيها جميعا •• صمتنا فجأة وكأننا متفقون على ذلك •• ولكنها كانت لحظة ولم تدم طويلا •• قطعها عمى بقوله لبشرى :

ــ قوم يا ولد نادى اختـك مريم عشـــان تجى تسـلم على ود عمك •

مريم !

مريم الصغيرة التى رأيتها قبل ثمانى سنوات • كانت ايامها فى العاشرة •• صغيرة •• جميلة مثل عروسة المولد بفستانها المدرسى القصير وضفيرتيها السوداوين الطويلتين •• لا اذكر وجهها الآن ، فأسبوع واحد منذ سنوات مضت يمحو كثيرا من التفصيل الصغيرة التى تحدد الشخصية وترسم الملامح وتميز ملايين البشر عن بعضهم بعضا •

كيف هى الآن يا ترى ؟

ورفعت رأسى انظر الى البـاب •• ورأيتها تدخل •• فارعة يغطيها ثوب أبيض ، وشعر رأسها يظهر من تحت الثوب المنحسر قليلا الى الوراء فى سواد داكن ولمعـان غريب •• كانت تنظر الى الأرض فى حياء شـديد •• وقفت ، وتقدمت منها قبل ان تصلنى ومددت لها يدى وسلمت عليها فى رفق ، ورفعت رأسها ونظرت الى بعيون كبيرة •

وعدت الى مقعـدى ، وجلست هى بجانب أمهـا على حافة الفراش تنظر الى أصابعها •

مريم !

مريم الصغيرة •• طفلة العاشرة •• ذات الضفيرتين !

يا للغرابة !

هل يمكن أن يفعل الزمن كل ذلك ؟ هذا التغير ••• هذا التحـول العجيب المدهش ؟ أية قوة تلك التى تستطيع أن تفعل ذلك ؟ تغير وتبدل وترسم وتحول وتقلب وتحور ؟ ثمانى سنوات فقط ويحدث هذا الانقلاب ؟ من عروسة المولد الى عروسة حقيقية •• من مجرد طفلة الى فتنة وأنوثة مكتملة •• من فستان قصير يقف عند منتصف الفخذ الى ثوب فتاة معطر يلهب الدم ويثير النفس ويلعب بالعاطفة •

وأعادنى صوت عمى الى نفسى :

ـ الظاهر عليك تعبان •

ثم يضحك •

ـ لازم ترتاح وتخلى باقى الونسة لبكرة •

وذهبت الى فراشى وصورة مريم بوجهها الجميل وقمحيتها الفاتنة لا تفارق ذهنى •• ولم يفارقنى ذلك الاحساس بعظمة الزمن وقوته الجبارة التى تحول الطفلة الى أنثى ترتدى الثوب وتخجل وتعرف أنها جميلة وأنها تخلب اللب وتثير العاطفة •• لم يفارقنى ذلك الاحساس حتى بعد أن استلقيت على الفراش الوثير الذى أعد خصيصا لى ، وحتى بعد ان قال لى سعد : « تصبح على خير » ويده تمتد لتطفىء النور المتوهج على جدار الفناء •

***

استيقظت فى الصباح متأخرا كعادتى فى الاجازة الصيفية

وكان عمى وسعد قد ذهبا الى السوق بينما بقى بشرى فى البيت يقرأ بعض قصص الأطفال ولا يكف عن سؤالى بين الحين والحين عن بلدنا وعن المدارس ودور اللهو فيها •• وحقيقة كان طفلا ذكيا وديعا يعرف كيف يؤانس الضيف دون مضايقة أو احراج •

وفتحت فمى لأسأله أول سؤال من مجموعة الأسئلة التى يختزنها ذهنى منذ ليلة الأمس •• ولكن صوت أمه المنبعث من داخل البيت : « بشرى •• بشرى » أوقف السؤال فى حلقى قبل أن أنطق به •

وهرول اليها ليعود بعد دقائق وهو يحمل صينية الفطور • وجلس الى جانبى •• ثم استجاب لدعوتى وأخذ يشاركنى افطارى الذى لم يستغرق من الوقت كثيرا •• بعدها نهضت واقفا ويممت الى الداخل دون تردد وانا فى جلابيتى الطويلة الجديدة ••• كان لا بد أن أشعرهم بأننى لست غريبا ، والواقع أننى لست كذلك (ومع ذلك فالشعور بأننى غريب لم يفارقنى مطلقا) •

وبادرت زوجة عمى بتحية الصباح ، وكانت تعد الشاى •• وطلبت منى أن أجلس الى جانبها «لأننى مثل ابنها سعد بل واكثر»• وأخذنا نتحدث ، هى فى لهجة كل الامهات الطيبات ، تحادثنى عن الحياة التى اضحت عسيرة ، وعن اسعار الخضر التى ارتفعت ارتفاعا فاحشا •• وتتحسر على الأيام التى كان فيها كل شىء برخص التراب ، وعن الحر الذى يزهق الأنفاس فيزيد من وطأة الحياة

وقسوتها على النفوس التى ضاقت ولم تعد تحتمل ، ولكن ما باليد حيلة •• هكذا الحياة وهكذا يجب ان نحياها •• وكنت فى خبث اصغى اليها بأذن واترك الأخرى تتصنت وتلتقط ما يمكن آن تلتقطه من أصوات أعرف أى نوع من الأصوات هى •• وباحدى عينى كنت انظر اليها مشجعا على المضى فى الحديث مؤكدا لها بأن ما تقوله هو الحق كل الحق وان الحياة هى تماما كما تقول وانها فعلا اضحت صعبة شاقة •• ولكن عينى الوقحة الاخرى كان تمسح فى حركات سريعة كل شبر وكل ركن من تلك الحجرة الواسعة وكأنها اصيبت بالترأرؤ فلم تعد تستقر على وضع ثابت لا تغيره الا بمقدار ماتفرضه عليها الضرورة ويدفعه اليها الدماغ •

وانتصرت الأذن على العين أخيرا والتقطت الصوت •• « امى » قيلت فى تمهل وكسل وعدم جدية وتلاها صمت • قيلت بطريقه توحى بأنها ارادت شيئا ولكنها سريعا ما غيرت رأيها وصرفت التفكير عنه •• قيلت وكأنها جاءت مباشرة فى اعقاب تثاؤب قصير لذيذ •• كأنها لم ترغب فى شىء اطلاقا بمناداتها لها •• مجرد كلمة التصقت بشفتيها ثم اطلقت سراحها دون وعى بها ودون ادراك منها لأهميتها •• شىء تعودت عليه وأصبح جزءا منها ولا يمكن الاستغناء عنه •

ورأيتها أمامى ، رفعت رأسى اليها مبتسما • ظلت واقفة فى مكانها بطولها العظيم الذى يجبرك على احترامه ، وبأنفها الشامخ المستقيم كالسهم •

لم تفتح فمها بكلمة •• لم ترد ابتسامتى •• فقط نظرت الى وجهى نظرة غريبة باردة لا تحمــل معنى ولا تدل على شىء ••• لا ! بل تدل على شىء مثل : ما الذى ـ أتى ـ بك ـ الى ـ هنا ؟ هل يمكن هذا ؟ وانتابتنى حيرة ممضــة وأنا أســأل نفسى ان كان ما تخيلته حقيقة وليس مجرد وهم وتصورات شاذة بليدة •• ولكن تلك النظرة كانت تقول كثير مما أعجز عن وصفه •• وعدت الى نفسى مرة أخرى وأنا استسخف ما ذهب اليه تفكيرى السقيم •

ولم تمكث كثيرا •• غادرت الحجرة الى الداخل وهى تحمل كوبا من الشاى بين يديها •

***

وأصبحت منذ ذلك اليوم عظيم الاهتمام بابنة عمى مريم •• تعمدت تجاهلها فى أول الأمر بأن تحاشيت رؤيتها والحديث اليها•• وأخذت اخرج كثيرا من المنزل اقضى ســهراتى خارجه مع ســعد وأصدقائه ، وأعود فى آخــر الليــل لأنام فى الحال ، ثم استيقظ فى الصباح وأغادر البيت مع عمى وابنه الى السوق لنعــود جميعا بعد الظهر •

ومع ذلك ظلت كما هى دون أن يطرأ عليها أى تغيير ••• نظراتها باردة قاسية لا تفهم منها شيئا أكثر من أنها نظرات عــدم اكتراث واستخفاف وعباراتها قصيرة مبتورة تقولها بحساب وميزان وكأنها تنبعث من حنجرة ذهبية تخاف عليها الافراط فى الكلام •

احترت معها وكرهت نفسى ، ورغبت حقيقة فى العـودة الى بلدى هربا منها •• ولكنى لم استطع •• وانتابنى مرة آخرى ذلك الاحساس بالغربة •• نعم ، لا يمكن أن نكون من لحم واحد ودم واحد •• انها تبعد عنى بآلاف الاميال والسنين • مريم ليست جزءا منى قطعا •• ما الحقيقة ؟ سألت نفسى •• هل احبها ؟ هل يمكن هذا ؟ هل ما احسه هو احساس من يحب ؟ كان هناك شىء فيها •• شىء لا تلمسه بيدك ولا تراه بعينك ، ولكن تشـعر به يتغلغل فى نفسك ، ويسرى فى أعصابك كالمخدر لا تستطيع ان تبطل مفعوله مهما اوتيت من عزيمة وقوة •• شىء تحسه وأنت تنظر فى عينيها •• انهما لا شك تقولان شيئا •• مؤكد ، عيناها تقولان شيئا •• ولكن ما هو ؟ انطباق الجفنين البطىء •• المتناهى فى بطئه فى اعقاب نظرة من عينيها لا يمكن أن يكون مجـــرد حـــركة فسـيولوجية لا ارادية •• وتلك النظرة الجانبية التى كثيرا ما أضبطها متلبسة بها وهى ترمقنى ثم ترتد سريعا الى سـابق وضعها لا يمكن أن تكون وليدة صدفة عابرة لا تحمل معنى ولا تعبر عن شىء •• هاتان العينان من المؤكد تقولان الكثير •• أى سحر يكمن فيهما ؟ اية قوة تلك التى تشدنى اليهمـا ، وترغمنى على التحـديق فيهما فترات طويلة أكاد أنسى خلالها نفسى ؟

الشىء الغـريب اننى لم أرها تضحك أو حتى تبتسم مجـرد ابتسامة •• ليس معنى ذلك أن وجهها كان صارما جـامدا يفتقـد الجمال والاشراق •• ولكنك تحس وأنت تنظر اليه انها مشـغولة

الفكر ، تسرح بخيالها فى أجواء أخرى بعيدة كل البعد عن كل ما يحيط بها فى ذلك المجتمع الصغير الذى تعيش فيه ، تحس بانها فى حالة تذمر خفى •• فى حالة ثورة غير منظورة •• ولكن اى اجـواء تلك التى تسرح فيها بخيالها ؟ أى تذمر ؟ وأية ثورة تلك التى تعتمل فى نفسها ؟ هذا ما عجزت عن الوصول اليه •

حدث فى احدى الامسيات ان دخلت الىالمنزل ووجدت زوجة عمى مستلقية على فراشها وهى تشكو من صداع •• طلبت شايا •• وكان ان طلبت زوجة عمى من مريم ان تعده لى • الكلمة الوحيدة التى سمعتها منها هى قولها : « طيب » ! ولكنى اسأل نفسى الآن : هل كان من الممكن ان تجيب عليها بأكثر من تلك الكلمة ؟ •

المهم أنها أعدت الشاى ووقفت أنا الى جانبها انظر اليها وهى تصبه فى الكوب •• لم نتبادل خلال كل ذلك الوقت كلمة واحدة •• وحين مدت لى يدها بكوب الشاى ، ضغطت على اصابعها التى تحمله قبل أن أتناوله منها •• وفوجئت عندما رأيتها تتلفت حولها فى ذعر وقد جحظت عيناها واضطربت شفتاها •• ولم ترفع رأسها الى وجهى•• غادرت مكانها واختفت داخل المنزل فى سرعة مذهلة•

وجاء اليوم الأخير •• يوم سفرى الى بلدى •

اعدوا حقائبى• وغمرونى بالهدايا ، وجلسوا حولى يستعيدون معى ذكرى ايامى التى قضـيتها بينهم •• ابتســاماتهم الحلوة على

وجوههم لم تكن تخفى حزنهم لمفارقتى لهم ، وضحكاتهم القصيرة كانت تعبر عن المـرارة والأسى اكثر ممـا تعبر عن تجـاوب نفسى وجسدى مع فكاهة لطيفة أو عبارة سارة قيلت أثناء تلك الجلسة • والكلام الكثير المتصل المتشـعب فى شـتى الأمور والذى قصـدوا بتدفقه واستمراره الا يتركوا مجالا لخلق حالة صمت تذكرهم باننى على وشـك السـفر ، لم يكن ينضب له معين من الحـرارة وعمق العاطفة •

ونهضت واقفا •

واتجهت الى زوجة عمى فى ركن الغـرفة وعانقتها مودعا ، وصافحت بشرى •• وكان هناك عمى الرشيد وسعد ينتظران بالباب •• فى شجاعة وجرأة سألت زوجة عمى :

– مريم وين ؟

وأجابتنى :

– فى المطبخ •

وذهبت اليها •

كانت مستندة بكل جسمها الى الجدار ويداها تخفيان وجهها •• كانت تبكى •• اقتربت منها ولمست كتفها ، وأدارت الى وجها لم يكن ذاك الذى عرفتـه •• كان بحـرا من الدموع •• العينان متوقدتان كشعلتين ، القناع الجامد اختفى ، وبدت على الوجـه كل

علامات الألم والحسرة •• النظرات الغريبـة كانت تصرخ وكأنها قضت الساعات الطوال تبكى وتنتحب •

وقفت مشـدوها انظر اليهـا دون أن أفتح فمى وقد أصابنى التبلد والجمود من هول المفاجأة •

ولم أشعر الا بأصابع زوجة عمى تلمس ذراعى وتقول لى فى صوت خفيض :

ـ عمك واقف ليك يا ولدى •• ربنا يكتب ليك السلامة •

واستدرت فى صمت وأخذت أسير تجاه الباب ، واشتد نحيب مريم وعويلها حتى كاد أن ينقلب الى صراخ حقيقى •

وفى القطار كنت أتخيل فى أسى كبير صـورتها وهى مستندة بكل جسدها الى الحائط تبكى فى لوعة •



الشيء الذى حدث

دهشتها

كانت لسببين : ان يحدث شيء كهذا ، وان يحدث في هذا المكان بالذات .

في ذلك الوقت من الصباح ، فتحت باب بيتها .. ابنتها زينب تمسك بالقفة التي تصر دائما على الامساك بها .. النعاس لا يزال باديا على وجهها الصغير ، فهي ـ رغم انها طفلة ـ آخر من ينام وأول من يستيقظ .. وعند استيقاظها لا تنتظر امها لتقوم بالباسها استعدادا لمشوار السوق .. من نفسها تفعل ذلك : تلبس الفستان والصندل وتمسك القفة ، ثم تجلس على البنبر حتى تفرغ والدتها من شرب القهوة .. اما نفيسة ، والدتها ، فلم تكن في مثل نشاط ابنتها .. احتساء قهوة الصباح في تمهل وكيف خير الف مرة من مشوار السوق الذي تمشيه أكثر من مرة في اليوم الواحد منذ ان أصبحت زوجة لها أولاد يذهبون الى الجامعة وبنات في سن الزواج .. كل شيء بوقته ، والسوق سيظل قائما في مكانه لعشرات

السنين ، اذن فلا داعى للاستعجال ••• ولكن نظرة زينب ال (ما تقومى ـ خلاص ـ يللا) ، كانت تخرب مزاجها وتجعلها على كره منها ترشف القهوة الساخنة فى سرعة حتى تلسعها ••• وتكتفى بفنجان واحد على أن تشرب الثانى عند عودتها من السوق •• تنهض وتتلفح بثوبها ، وتتأكد من المصروف ، وتمسك بيد زينب وتتجه نحو الباب •

امس فقط حدث فى حيهم الراكد شيء جدير بالاهتمام • كان موضوعا دسما لونسة لطيفة استغرقت مساء نفس اليوم وجزءا من ليله ، وضمت بعض نساء الحى العتيقات •• هى أول من نشر الخبر ، اذ كيف يمكن أن تبقى فى الكتمان شيئا كهذا دون أن تفضى به لغيرها من نساء الحى ؟ الخبر الذى اذاعته يقول ان البيت الذى يجاورهم قد وجد من يقطنه أخيرا •• الى هنا والخبر يثير دهشة معقولة •• ولكن الدهشة تتحول الى مفاجأة تلجم اللسان وتسبب الحيرة عندما تضيف بأن السكان الجدد « خواجات » نعم خواجات لا يتكلمون العربية ولونهم أحمر مثل الفشفاش •• كيف يسكن مثل هؤلاء الناس فى ذلك الزقاق الضيق القديم ؟ هنا المفاجأة وهنا العقدة التى تحتاج الى ألف حلال •

فى تلك الأمسية اتفقن جميعا على أن يبادرن بالتعرف اليهم فى الحال ، فهم قبل كل شيء غرباء ، وليس من الذوق ولا من الاخلاق التنكر للغرباء •

وجاء الصباح .

وفتحت نفيسة الباب .. يدها تمسك بيد ابنتها زينب ، وزينب تقبض على القفة .

حدث الشيء أمامها وأمام ابنتها .. لم تتقدم خطوة واحدة .. ظلت فى وقفتها . عيناها تحملقان فى دهشة ، فمها نصف مفتوح ، يدها القابضة على يد ابنتها سقطت بلا ارادة الى جانبها ، جسدها الطويل العريض أخذ يرتجف وعرق بارد غزير ينساب على عنقها وتحت ثدييها .

كان حدوث الشيء فوق ادراكها وتصورها .. فى كل حياتها الطويلة لم تر شيئا كهذا .. هل يمكن أن يكون هناك عيب أكثر مما رأته ؟ امرأة .. امرأة مثلها تماما لا تختلف عنها الا فى الشعر المرسل واللون الأبيض . وربما صغر السن ، تقف فى الشارع وتعانق رجلا وتقبله فى فمه ؟ حتى لو كان الرجل زوجها كيف تبلغ بها الجرأة هذا الحد ؟ تقف على اطراف اصابعها وذراعاها تلتفان حول عنقه وتشد رأسه اليها ، وتضحك .. نعم . تضحك فى وجهه ، وتعبث بشعره ، ثم تقبله فى فمه .. وفى الشارع !!

المشهد كله لم يستغرق أكثر من دقيقة ، ومع ذلك فقد خيل اليها أنه استمر الى اكثر من هذا بكثير .. كان بالنسبة لها شيئا فريدا .. زوجة تقبل زوجها فى الشارع .. أحست بأنها أهينت أبلغ اهانة . دهشتها لم تكن بأقل من الحيرة التى تملكتها .. المفاجأة

فى حد ذاتها غريبة ، والشىء لم يكن متوقعا •• مجرد التفكير فى أن للمرأة شفتين يمكن أن تقبلا رجلا بدا لها شيئا غامضا لا يمكن للعقـل أن يقبله •• هى نفسـها لا تدرى ان كانت قد فعلت هذا الشىء أو لا • وحتى لو كان ذلك الشىء قد حـــدث فهى من المؤكد لا تذكر تفاصيله الآن • لا بد أن يكون قد حدث منذ ثلاثين سنة على الأقل •• ولكن هنـا ، امامها ، المرأة هى التى تتطاول ، وتتشبث بالرجل ، هى التى تشده وتضمه الى صـدرها وتقبله فى فمه فى شراهة وفجور •• وفى شارعهم !

ونظرت الى ابنتها •• كانت تحدق مشـــدوهة الى الزوجين المتعانقين •• الغريبين اللذين سكنا الى جوارهم • هنا فقط ادركت خطورة الحدث •• انتفض جسمها فى قوة ، وأصابعها التى كانت تنز عرقا امتدت تبحث عن يد ابنتها ، وعيناها اللتان ضاقتا من الغيظ والحنق ، ترمقان الزوجين • فى خوف حقيقى وغضب بالغ شدت ابنتها اليها وهى تقول :

ـ مسخرة وقلة أدب •• أرح يا بتى ••

وسارت فى طريقها الى الســوق وهى تسحب ابنتهـا خلفها دون ان تدير رأسها الى الوراء •

المنزل المجاور

عندما توارت الشمس خلف الأفق ، كانت الحاجة فاطمة تتوسد ذراعها وهى مستلقية على فراشها تتأهب للنوم •• اليوم بالنسبة لها كان قد انتهى ، وداهمها ليل حالك السواد ليس بمقدورها أن تسهره ان هى ارادت ذلك •• وهى فى واقع الأمر لم تكن ترغب فى ذلك اطلاقا فى أى يوم من أيام حياتها التى عاشتها فى هذا المكان من المدينة •

بيتها لم يكن بيتا بالمعنى الصحيح ، كان مسكنا ، نعم ، وفى هذا الكفاية •• غرفة صغيرة يفتح بابها على فناء واسع الى حد ما يفصله عن المنزل المجاور جدار قصير يمتد بطول الفناء •• اما الغرفة نفسها فقد كانت رغم ضيقها تشهد ببراعة الحاجة فاطمة كسيدة «بيت» لها شأنها •• فراشها الذى تنام عليه ، مثلا ، كان ، رغم بساطته المتناهية منظما مرتبا لا يستفز النظر ولا يجرح الاحساس •• والسحارة المنزوية فى ركن من أركان الغرفة والتى تحوى بعض

الملابس القديمة وأوانى شهر رمضان ، كانت مطلية حديثا ، ورغم انها كانت مطلية باللونين الأحمر والأخضر فى غير انسجام الا انه كانت فعلا تبدو وكأن عمرها لم يزد عن خمس السنوات مع أنها عاشت مع الحاجة فاطمة كل عمرها الطويل الخالد •• الى جانب هذا حوت الغرفة أشياء أخرى كثيرة لا يمكن للحاجة ان تستغنى عنها ، ولا يمكن بدون وجودها الفعلى ان تشعر بأنها حقيقة تمتلك مسكنا كسائر الناس ، مسكنا تحبه وتعنى به وتبذل كل ما يمكنها من طاقة وجهد ليبدو على شىء حتى ولو كان يسيرا من الجمال والذوق •

ولا يدرى أحـد لماذا يظل بيت كهـذا ، بكل فقـره الذى لا يخفى •• وبكل مظاهر القدم التى نخرت فى جدرانه ونوافذه وبابه ، قائما فى هذا المكان من الحى ، وفى شارع يعتبر بحق ، اذا ما قورن ببقية شوارع الحى ، أنيقا جميلا •• وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل الأدهى هو وجود مسكن الحاجة هذا الى جوار منزل السيد عبد القادر كرار فى تلاصق عجيب مدهش •• فذلك الجدار القصير الذى يمتد بطول فناء البيت هو فى نفس الوقت جدار منزل السيد عبد القادر كرار •• وكانت هذه الحقيقة تثير فى نفس الحاجة فاطمة الكثير من الزهو والفخر •• مجـرد احسـاسها بأنها جارة للسيد عبد القادر كرار كان يملأ نفسها بكبرياء وشعور طاغ بسعادة غامرة لا قبل لها بها •• والشىء الغـريب انهـا كانت تحس بتلك السعادة الغامضة المتغلغلة فى أعماق نفسها •• رغم أن ذلك المنزل المجاور لم يسكنه انسان على الاطلاق•• فقد ظل المنزل ؟ على جماله؟

البيت البارد زمنا طويلا دون أن يجد من يستأجره لسكناه •• هنا تكمن مأساة الحاجة فاطمة ، مأساة تعيشها فى صمت ولا تستطيع أن تفعل بشأنها شيئا •• عاشت كل حياتها السابقة فى عزلة رهيبة •• هجرها ابنها يعقوب بعد أن تزوج وانجب ، ولم يعد يسأل عنها بعد ذلك •• ظلت هكذا وحيدة ، بلا أهل وبلا جيران وبلا أصدقاء •

كانت تستيقظ عند الفجر وتذهب الى السوق وتعرض تجارتها الصغيرة المكونة من النبق واللالوب والفول على الناس •• ثم تعود فى آخر النهار الى مسكنها وتأكل كسرتها وترتب محتويات بيتها ، ثم تستلقى عند المغرب على فراشها وتنام تماما كما ينام الناس•• ولكن الحاجة لم تكن سريعة النوم •• تظل راقدة على فراشها لوقت لا يقل عن الساعة ، لا تفكر فى شىء ذى بال •• فقد تترك فكرها يسرح بها فى اجواء محدودة لا تشكل خطرا على حياتها ومستقبل تلك الحياة الهادئة الرتيبة •• الصور التى كانت تراها متعاقبة فى تلك الساعة من يقظة ما قبل النوم ، صور تتكرر أمامها يوميا منذ خمسة أعوام، بنفس تفاصيلها ودقائقها دون تغيير ، ومع ذلك فالحاجة تسعد بذلك اللقاء اليومى ، تنفرج شفتاها عن ابتسامة وهى ترى بثينة الصغيرة عائدة من مدرستها وقد ارتدت مريلتها البيضاء وأمسكت بيدها كراساتها الصغيرة وهى تقول لها : ازيك يا حبوبة فاطنة ! عندما تراها جالسة على بنبرها والمترار فى يدها وكومة من القطن الأبيض الى جانبها على الفراش •• وبثينة لا تدخل منزل الحاجة فاطمة أبدا،

ولكن الحاجة تذهب اليها عند البـاب وتملأ لها شنطه كتبها الدبلان بالنبق واللالوب •• وتفرح الصـغيرة بالهـدية الغالية وتذهب الى بيتها فى نهاية الشارع وسعادتها العظيمة لا مكان لوصفها •• تأتى بعد ذلك كريمة بقـامتها الطـويلة ووجهها ذى الشـلوخ المطارق وشفتها المدقوقة وهى فى طريقها الى السوق لتبتاع خضار اليوم •• ولكنها لا تلقى اليها بالتحية •• تنظر اليها فقط نظرة طويلة ••• مجرد نظرة خلت من كل معنى ، ثم تسير فى طريقها والقفة تتدلى من يدها الطويلة القوية •• ولكن الحاجة لا تغضب ولا تكتئب •• فقد تعلمت أن الغضب والاكتئـاب لا يعـودان بشىء غير التعاسـة والألم •

وهانم أيضـا لم تكلف نفسـها يوما بزيارتها وشرب القهوة معها • قدماها اللتان تحملان كل ذلك الشحم واللحم ، كانتا تعرفان الطريق الى بيوت رقية والرضية ونفيسة ، ولكنهما أبدا لم تقودها الى مسكنها ، مع انها لم تسىء اليها يوما ما ، بل كانت تسر برؤية وجهها الأمره الجميل ، وتعجب بخفتها ونشـاطها ـ رغم سـمنتها المفرطة ـ وهى تدخل من بيت الى بيت تجمع مال الصندوق الذى لم تسألها هانم أن تشترك فيه معهن مع انها ، الحاجة ، من أهل الحى الأصليين الحقيقيين لا تعرف الغش ولا الكذب ولا الرياء •

كانت تعرف أنها وحيدة لا يشاركها أحد فى كل ما يعتريها من فرح أو حزن •• رغم كل ما بذلت للتقرب من أهل ذلك الحى

لتهزم تلك الوحدة القاسية ، الا أن محاولاتها دائما كان الفشل مصيرها • ولم تجد مفرا من الاستسلام ، وكانت تقول لنفسها : « ماذا أستطيع أن أفعل بعد ذلك ؟ لقد تعبت وانهدت قواى » •

***

أدارت رأسها على وسادتها وأغمضت عينيها ، ولكنها لم تستطع أن تنام •• كان بصرها معلقا بذلك المنزل المجاور •• منزل السيد عبد القادر كرار •• بكل جماله وبكل بروده وهو يسبح فى الظلام •• وأخذت نفسا طويلا من الهواء •• وعادت الصور مرة أخرى تسبح أمامها لتعيش معها فى تلك اليقظة قبل أن يطويها النعاس أخيرا فتنام دون احلام لتستيقظ فى صباح اليوم الباكر •

فى عصر أحد الأيام عادت الحاجة فاطمة من السوق وهى تحمل قفتها وبها ما تبقى مما باعته من بضاعتها الصغيرة ••• كانت تسير تجاه مسكنها وهى تنظر الى الأرض كما تفعل دائما منذ اكثر من خمس سنوات ، دون أن يخطر بذهنها ما يحمله لها ذلك اليوم من مفاجآت •

ووصلت الى مسكنها ولكنها لم تدخل ••• ظلت واقفة وقد استبدت بها دهشة كبيرة غيرت من ملامح وجهها المألوفة التى لم يغيرها الزمن الا قليلا •• كان يمكن للحاجة أن تصدق كل ما يمكن أن يقال لها من غرائب الأحداث وعجائب الأمور •• ولكنها ، فى هذه اللحظة ، كان يصعب عليها أن تصدق ما تراه عيناها الهامدتان •

ولكن الشيء يحدث أمامها ، ولم يخبرها به أحد •• الشيء حقيقه مؤكدة مثل حقيقة وجودها فى بيتها ببابه العتيق ونوافذه الهرمة • أخيرا أصبح لها جيران •• لقد سكن منزل السيد عبد القادر كرار !

رأت قطع الأثاث الفخم يحملها الحمالون تدخل المنزل قطعة فى اثر قطعة •• الدواليب الضخمة ذات المقابض المعدنية ، الاسرة الكبيرة المذهبة ، المقاعد الوثيرة ذات المسندين ، المناضد ذات الطلاء الجميل بأحجامها المختلفة ، السجاد العجمى الأصيل •• واشياء أخرى كثيرة لم تعرف لها أسماء ، ولم ترها فى حياتها ولا سمعت بها •• كل ذلك رأته يختفى فى المنزل المجاور وهى واقفة تنظر ولا تمل النظر ، تبلع ريقها ويدق قلبها وتنكمش اصابعها فى قوة على قفتها فتؤكد حقيقة وجودها وحقيقة ما تراه الآن أمامها ••• أخيرا أصبح لها جيران « السرور » •• أخيرا لم يعد منزل السيد عبد القادر كرار يسبح فى جماله البارد •• لقد دبت فيه وفيها ايضا الحركة والحياة •

ولم تذهب الحاجة فاطمة الى السوق فى صباح اليوم التالى ، فقد اعتبرت حدث الأمس جديرا بأن تأخذ له عطلة •• لم تذهب كذلك لتحية جيرانها الجدد كما يفرض عليها الواجب ، بل ظلت جالسة على طرف فراشها وهى تلتقط بأذن حساسة ما يحمله لها نسيم ذلك الصباح من أحاديث خافتة تدور بين الزوجين •• كانت تسمع ما يقال من كلام فتبتسم لنفسها وقد استخفها فرح عظيم

والغناء المنبعث من المذياع فى النهـار والليـل كان يجعلها تضحك ضحكات قصيرة فيها من الانفعال ما يجعلها تبدو كضحك المخبولين •• وخرير الماء الذى يروى أشجار النارنج والليمون كان يطربها طربا شديدا ويؤكد لها أنها لم تعد وحيدة الآن •

ونهضت واقفة •• وأخذت تسير على قدميها الحافيتين فى حذر وتلصص تجاه جدار الفناء القصير •• التصقت به واحنت رأسها حتى لا يبدو واضحا لجيرانها الجدد ، ثم اخذت تعدل قامتها وترفع رأسـها الى أعلى فى بطء شـديد حتى استطاعت عينـاها ان ترىا ما بداخل المنزل •• رأت الزوجة •• كانت تجلس على فراش عال جميل وكأنه الملكة ، وبجانبها طقطوقة صغيرة عليها فنجان القهوة •• يدها تمتد بين كل لحظة وأخـرى فتمسك به وترشف منه فى لذة وكيف أصيل •• لم تكن الحاجة ترى غير الجانب الأيمن من وجه جارتها •• ولكن كان فيه الكفاية ليؤكد لها جمالها وفتنتها •• لاشك أنها عروس •• يداها مخضوبتان بالحناء ، وذراعاها تثقلهما الاساور الذهبية ، وشعرها حديث المشاط بالجورسيه •• بالاختصار كان كل شىء فيها يدل على أنها عروس •

وعادت الحاجة الى جلستها وهى تفرك راحتيها وصورة جارتها لا تفارق مخيلتها •• جارتها عروس !

كان أول شىء خطر للحـاجة فى صباح اليوم التالى هو أن تقوم بزيارة جيرانها •• زيارة للمجاملة والتعارف •• لم تذهب الى

السوق • وامتدت الاجازة التى قررتها لنفسها الى يومين •• ارتدت احدث ثيابها ، ومسحت شبشبها ، ربما لأول مرة ، بواحدة من الخرق التى تكومها فى ركن من الغرفة ، ودلكت جسمها بزيت عطر ، وألقت نظرة سريعة على غرفتها ثم يممت شطر الباب ••• ولكنها فجأة توقفت عن السير واكتسى وجهها بجمود غريب ، وامسكت يدها بالباب وكأن نوبة مفاجئة قد أصابتها •• وعادت الى غرفتها لتجلس مرة أخرى على حافة الفراش • كانت تحس بضيق يجثم على صدرها وبرغبة ملحة فى البكاء •• أخيرا بعد أن قضت كل حياتها فى هذا الحى تعيش كالغريبة فى وحدتها القاتلة •• بعيدة عن الناس •• أخيرا يرسل لها الله هذه الهدية •• وبكت الحاجة فاطمة كثيرا ذلك اليوم ، بكت كالأطفال بدموع كالسيل•• واحست براحة عظيمة تتغلغل فيها •• وبرقت عيناها ، وعادت ابتسامتها مرة أخرى تضىء وجهها الهزيل •

وعاشت الحاجة أسبوعا كاملا من السعادة التى لم تعرفها من قبل •• رغم أنها لم تذهب لزيارة جيرانها لتتعرف بهم ، الا ان ذلك لم يقلل من مقدار سعادتها وفرحها العظيم بوجودها بالقرب منهم• اصبحت تبتسم لنفسها وهى قادمة من السوق تحمل قفتها عند عصرية كل يوم ، فهناك قوم يعيشون بقربها ، تسمع أصواتهم وضحكاتهم ، وتراهم من فوق جدارها القصير فيسليها منظرهم كثيرا وكأنهم مخلوقات فريدة هبطت من السماء •

وكان لا بد أن يشملها تغيير كبير لم تكن لها يد فيه اصبحت، مثلا ، تذهب الى السوق متأخرة على غير عادتها ، مستغلة الساعات الأولى من الصباح فى الانصات الى أحاديث الزوجين الخافتة التى كانت تصل الى أذنيها فى غير صعوبة كبيرة •• واصبحت بالتالى تعود مبكرة من السوق ، قبل العصر بقليل ، دون مراعاة لما قد ينجم عن ذلك من كساد لبضاعتها •• وأحبت مسكنها واعطته من وقتها الكثير ، وشغفت بالتجديد •• كانت تغير من وضع فراشها كل يوم وتكنس الأرض اكثر من مرتين فى اليوم الواحد ، وبيضت نحاسها •• واشترت فانوسا جديدا علقته على حبل يتدلى من سقف الحجرة واقتنت بعض الأوانى الجديدة •• وأوصت واحدا من النجارين بصنع كرسى يناسب المقام •• ونمت عندها ملكة الابتكار ••• فأصبحت تقضى كل يومها تنظر الى الغرفة نظرات فاحصة مدققة لا تلبث أن تتحول الى عمل ، فتغير وتبدل من وضع الأشياء فى همة ونشاط وكأنها تنتظر زائرا عظيم الشأن •

★★★

استيقظت الحاجة فاطمة فى صباح اليوم الأول من اسبوع سعادتها الثانى وهى لا تخفى شعورا بالقلق •• كان أول ما فعلته هو أن نهضت من فراشها واقتربت من الجدار المشترك فى تلصص وحذر شديدين •• والواقع انه لم يكن ثمة ما يدعو الحاجة فاطمة لكل ذلك الحذر •• فلو هى ظلت فى مكانها كما كانت ، لسمعت

بوضوح وفى يسر شديد تلك المعركة الكلامية الحادة التى كانت تدور بين الزوجين .

لم تصدق أذنيها . كان الأمر فوق ادراكها . حدوث مثل هذا الشيء الغريب لعروسين فى أول أيام حياتهما الجديدة ، لا بد ان يكون لأمر خطير بل بالغ الخطورة .. وشدت أذنيها أكثر حتى لا يفوتها شيء مما يتبادل من كلمات جارحة قاسية تصيب الشرف وتطعن الكرامة .

واقشعر بدنها ، وتصبب العرق من وجهها ، وارتجفت شفتاها وأخذت تهز رأسها الى اليمين والى اليسار فى استنكار وريبة .

وانتهت المعركة .. ومضت ساعة من الزمن لم تسمع فيها صوتا . ولمعت عيناها الخابيتان .

دون تردد تناولت ثوبها وتلفحت به ثم انطلقت خارجة من مسكنها وما هى الا لحظات حتى كانت تطرق لأول مرة على باب جيرانها .

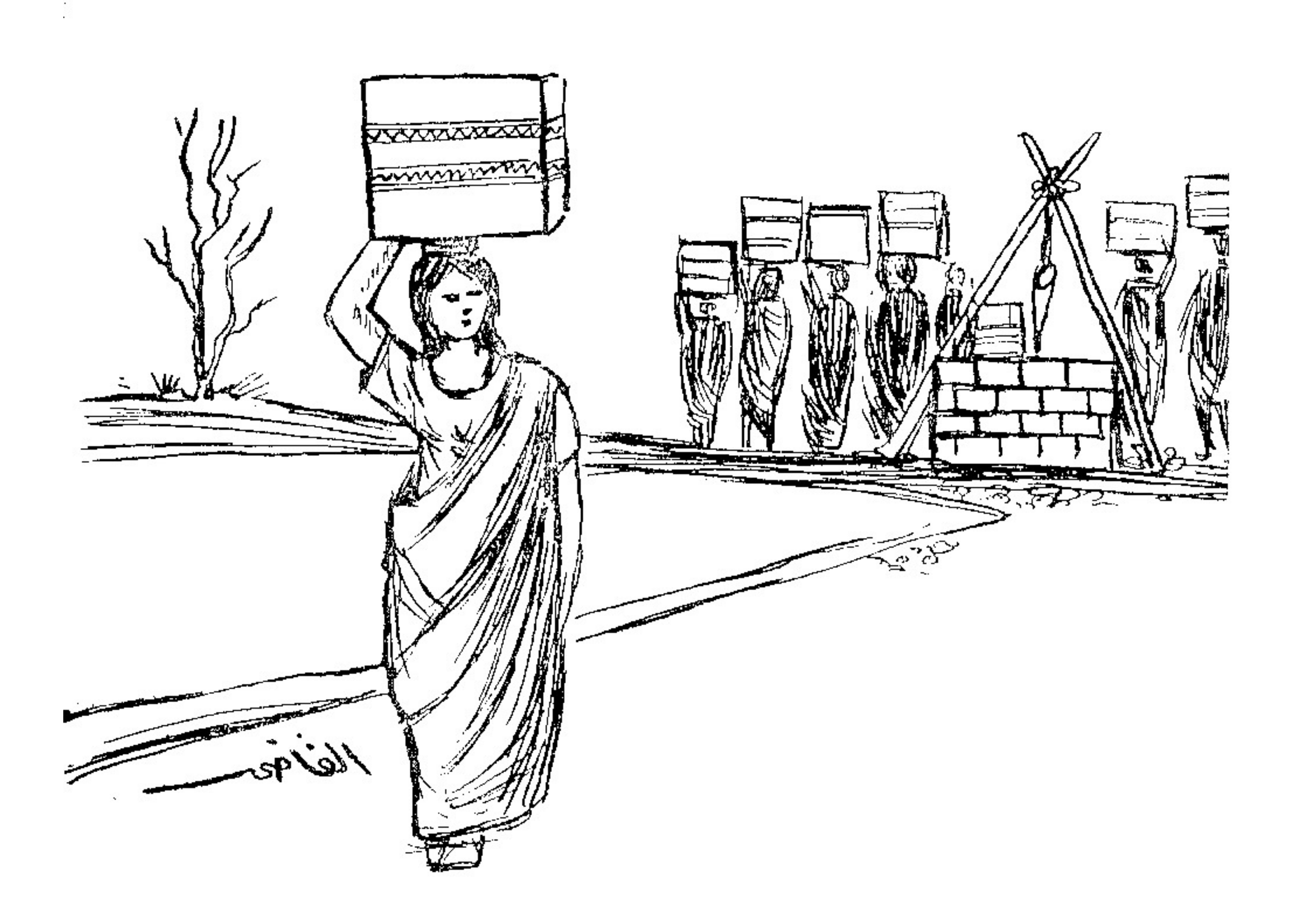
وفتح الباب بمجرد ان لمسته يدها مما يدل على ان الباب لم يفتح استجابة لطرقاتها ، فقد حدث ذلك مصادفة دون شك ومما يؤكد ذلك ، ان الباب فتح على مصراعيه فكشف عن فناء البيت .

واستغربت أن ترى أمامها رجلا لم تره من قبل يرتدى جلبابا ويحمل مقعدا ذا مسندين بين يديه .. ومر الرجل بجانبها وخرج

الى الشارع ليضع المقعد داخل عربة نقل كبيرة كانت تقف على الناصية •• وقبل أن تفيق من دهشتها لمحت رجلا آخر يحمل منضدة كبيرة ويضعها داخل العـــربة •• وتكرر المشـــهد أمامها عدة مرات وهى ملتصقة بالحائط تنظر فى صمت •

وامتلأت العربة بقطع الأثاث الضخم الذى بهرها منظره عندما شاهدته ينقل الى المنزل فى الأسبوع الماضى •

ورأت العربة الكبيرة تتحرك ثم تغــادر الشـــارع •• ومضت دقائق قبل أن تبصر سيارة أجرة تقف أمام نفس المنزل وهى تطلق نفيرها •• وأبصرت الزوجين وقد حمل كل منهما حقيبة كبيرة •• ووضع الزوج حقيبته على الأرض ودخـــل الى المنزل مرة اخـــرى وعاد بحقيبة أخرى •• ثم رأت السائق يضع الحقائب الثلاث فى مؤخرة سيارته •• وركب الزوجان دون أن يلتفتا اليها ، وعندما انطلقت بهما السيارة ، كانت الحاجة فاطمة هناك ، ملتصقة بالحائط •• ترسل بصرها فى اتجاههما ودمعتان كبيرتان تسيلان على خديها•



بئر بلا ماء

الغريب

أنها ظلت واقفة وكان بامكانها أن تجلس على الارض كما يجلس طابور النســاء الممتد امامهــا حتى يأتى دورها وتصــل الى البئر فتملأ صفيحتها وتعود الى بيتها •• ولكن مجرد التفكير فى ان تفعل ذلك لم يخطر على بالها ، ولا حاول ذهنها أن يعقد مقارنة بين الفائدة التى تعود على الجسم من الجلوس فى استرخاء وكسل ، وبين الوقوف على القدمين مما يسبب شد عضلات الفخذ والســاق وتوتر الأعصــاب وبالتالى الاحساس السريع بالتعب .. ولكن الوقوف هنــا يوحى بالقلق والترقب طالما كان هناك طابور منتظم من النساء يتطلع الى تلك الحفرة المستديرة المحوطة ببعض الحجارة والتى تمتد الى عمق فى الأرض يصل الى عدة أمتار ••• مجرد هدف لعشرات الأعين وعشرات الأفواه •• هنا مصدر القلق ••• هنا مصدر الترقب •• ولو نظرت الى دولى املى وهى فى وقفتها تلك ، لتيقنت من أن الوقوف فى مثل تلك الحالة

وتلك الظروف لا يعنى أكثر من القلق والترقب المثير : عيناها لم تكونا ترمشان كما ترمش العين العادية فى الظروف العادية ، كأن الحركة غير الارادية فى عضلات الجفن الناعمــة قد انعدمت تماما ، كأنهما تحولتا الى عينين من الشمع فى تقليد متقن مبتكر •• والفم ذو الفك الجامد كان مضموما فى قوة مما جعل الشفة السفلى تكاد تختفى تحت العليا ، والخـدين اكثر بروزا وتحجرا (فى الأصل ضامرات ولهما تجويفان قبيحان) اما الأنف فكان شامخا متحديا ذا فتحتين صغيرتين (وهذا شيء نادر بين الكوما) ولو لم يكن الأنف معروفا بأنه عضو الشم لما كان هناك مجال للتردد فى القول بأن انف دولى املى فى تلك الســاعة كان ينظر أيضــا بنفس الترقب ونفس القلق الى البئر •• ورغم انها كانت نحيلة الساعدين ، الا أن أصابعها كانت غليظة وقبيحة كأصابع الفعلة •• وكانت تمسـك بهــا فى قوة عضلية عظيمة صفيحتها القديمة الصدئة •• وتخبط بها فى عصــبية لا تخطئها العين على ركبتيها خبطات سريعة منتظمة •

اعتدلت فى وقفتها ولكنها لم تجلس •• ولأول مرة منذ ان جاءت الى هذا المكان التفتت الى المرأة التى كانت تجلس أمامها •• لم تكن تعرف اســمها ، ولكنها كانت تراها كل يوم عندما تحضر لتملأ صفيحتها •• القت اليها ، اذن ، بنظرة سريعة خاطفة •• كان وجود هذه المــرأة فى مثــل هذا الوقت من كل يوم أمرا معروفا ومفروغا منه ، شيء عادى اعتادت عليه العين فأصبح لا يحرك شاردة

ولا يوحى بفكرة ، كالحجر الضخم ذى النتوءات الكثيرة الحادة والقائم على بعد مترين من البئر والذى انغرس نصفه فى الارض الجافة فأصبح معلما هاما (والبئر لا تحتاج الى معلم ، كل السكان يعرفون مكانها ... حتى الأطفال وحتى الحيوانات) من معالم البئر .. النظرة الخاطفة انتقلت الى المرأة التى تليها.. سوداء محنية الظهر ذات وجه مستطيل عظامه بارزة وكأنها تتحدى اللحم والجلد الذى يغطيه ، والصديد على زوايا العينين المصابتين بالرمد كأنه قطرات من لبن فاسد .. عرفتها دولى .. انها زينب افودى مع ابنتيها الكريهتين وصفيحتيها وقرعتها الكبيرة التى سرقتها من نساء الامبررو .. ظل نظرها معلقا بها لوقت طويل ، وشفتاها المضمومتان أصبحتا أكثر انضماما ، وعيناها اكثر ضيقا . لم تكن تحب زينب افودى لأنها كانت تأخذ من الماء أضعاف ما تأخذ هى وغيرها من النساء .. تملأ صفيحتها الأولى ثم تلقى بالصفيحة الثانية وتنتظر وتنتظر ولا يهمها الانتظار حتى تملؤها هى الأخرى لتصب منها فى قرعة الامبررو الكبيرة الغويطة ، ثم تعود مرة أخرى وتلقى بالصفيحة الى البئر .. « الماء ليس لك انت فقط يا زينب افودى .. انت تذهبين به لتصنعى المريسة للفداسة وليغتسل به الرجال الذين يحضرون اليك ليلا يا ... ! » .

وكانت هناك أيضا فى الطابور مامى يعقوب ودويا يوقو وبايا كوى وشمة يانا اتنين وغيرهن كثيرات .. كثيرات .. كثيرات .. ولكن نظرها تعلق هناك بالبئر ولم يتحول عنه .. ذلك السحر الخالد ..

المغناطيسى الذى لا يقاوم قوة جذبه الجبارة شيء • تعلق بصرها به •• كل خطوة تخطوها نحوها كانت تمسح خيطا من الكآبة المرتسمة على وجهها ، وتبلل جزءا من لسانها الجاف وتجعله يتحرك داخل فمها وقد اكتسب ليونة ونعومة •

مجرد وجود مثل هذا الازدحام على البئر كان يدل على ان الوقت صيف •• والصيف هنا لا يحبه أحد •• الأشجار أول من يتلقى ضربة الصيف •• فتتساقط أوراقها واحدة اثر الأخرى ، وما يبقى منها على الشجر يتغير لونه الى الأصفر الباهت فلا ينظر اليه أحد !• الجبل نفسه بعظمته وخضرته يصبح مجرد صخور صفراء كريهة لا تغرى بالنظر ولا تدعو الى العجب ••• الناس انفسهم يتغيرون •• وجوههم الطرية المرتوية بالماء تعود فتصبح «متكرمشة»، جافة ، مريضة •• كلامهم الكثير بشتى لهجاتهم •• بكل فجاجته وبكل نعومته ، يتحول الى صمت قاتل ولا يقال الا اذا دعت الضرورة •• ثيابهم بألوانها الزاهية كعقود الخرز التى يشترونها من الجلابة، تصبح فى لون الجبل الأصفر الباهت فتصدم النفس وتؤذى النظر •

لو كانت دولى املى تعرف أن الحصول على الماء يتطلب كل ذلك القدر من الصبر والكفاح لما فكرت فى أن تهجر يابوس ، ولاستطاعت أن تقنع زوجها شاموم بالبقاء معها ليزرع كما يزرع كل أبناء يابوس • ولكن شاموم الخبيث لم يذكر لها شيئا عن الماء كان كل همه أن يلبس الجلباب الكاكى والطاقية المثلثة ويقف حارسا

لاستراحة الحكومة هنا • ومع ذلك لا تستطيع دولى ان تنكر ان منظره فى الجلباب والطاقية كان جميلا ومثيرا حتى انها لم تتعرف عليه عندما رأته لأول مرة بعد أن تسلم عمله الجديد •• ولاتستطيع أن تنسى كذلك يوم امتلأت قطيعتهما بعدد من اولاد وبنات الكوما جاءوا لرؤية شاموم فى زية الجديد •• كانت سعيدة ولم تكن تكف لحظة عن الابتسام ، وشاموم يتمخطر أمامهم فى رشاقة وكل شيء فيه يضحك •

كان صباحا ككل صباح •• شمس قاتلة ، ارض صلدة محرقة لا يستطيع باطن القدم ان يلمسها لأكثر من بضع ثوان ، هواء جاف حار يلفح الوجه وكأن قطعة من حديد محمى قد التصقت به ، ضيق بالنفس ما بعده ضيق ، ظمأ حاد مهلك يشل حركة اللسان داخل تجويف الفم فيمنع الكلام ويحيل سقف الحلق الى مجرد قطعة من الخشب •

فى ذلك الصباح تحاملت دولى على نفسها ونهضت من فراشها كأنشط ما يكون الانسان •• لم تغسل وجهها (فى يابوس كانت تغسله بل وتستحم وتغسل ثيابها وتبعثر الماء بغير حساب) اذ لم يعد ثمة شيء من ماء الأمس •• أمسكت بصفيحتها القديمة وخرجت من البيت فى طريقها الى البئر •

الآن لم يبق أمامها غير أربعة من نساء جوروط لتصل الى البئر •• الآن فقط جلست على الأرض •• عضلات ساقيها المشدودة

تراخت واكسبت الساقين استدارتهما المعهودة •• شفتاها المضمومتان في حنق انفرجتا ؟ فبانت أسنانها •• عينا الشمع عادتا للرمش المنتظم ، الانف الشامخ المتحدى هبط الى الأرض واتسعت فتحتاه ليملأ الرئتين من هواء النهار الحار •• أصابع الفعلة المتيبسة على حافة الصفيحة طفقت تزيل قشور الصدأ المتراكمة على باطنها •• ولكن تجويف الفم ظل على جفافه •• بل وزاده الانفعال والاثارة جفافا وتيبسا اكثر ، فتعب اليوم يقترب من النهاية والانتصار على العطش اصبح وشيك الوقوع •• الماء على بعد خطوتين منها •

لم تعرف دولى كم مضى من الزمن منذ ان غادرت جوروط ، أصبح حضورها الى البئر جزءا هاما بل والاكثر اهمية من كل ما عداه من واجباتها اليومية • كان الخاطر الاول الذى تومض له عيناها المجهدتان منذ ان تفتحهما فى فجر كل يوم •• المحرك الذى يدفعها ، دون مقاومة منها ، لتمشى ساعتين كاملتين حتى تصل الى البئر •• لا وقت للتفكير فى مدى الجهد الذى تبذله يوميا ، فى السأم الذى يخلقه الانتظار الطويل حتى يأتى دورها فتملأ صفيحتها ، فى خيبة الامل الكبرى عندما تجف البئر ويعز الماء ، فى سياط الشمس المحرقة التى تلهب جسدها الطويل الاسود ، فالوصول الى البئر كان يصرفها عن التفكير فى أى شىء آخر ، حتى فى يابوس حيث ولدت وبلغت واصبحت امرأة •• هنا اصبحت واحدة من نساء

جوروط تتحدث بلسانهن وتصيح وتعارك مثلهن ، وترقص فى زمبارتهن وتأكل البابون •• وتحمل صفيحتها كل صباح الى البئر لتعود بها فى النهار فتطبخ وتصنع المريسة لها ولشاموم ولضيوف شاموم •

الوقت هنا لا يعرف بالساعة ، ولكن بالفجر والصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء •• احساس دولى املى فى تلك اللحظة هو انها امضت منذ ان غادرت جوروط حتى مكان البئر وبعد ان اصبحت على بعد خطوتين منها ، الكثير من الوقت •• الفجر والصبح والظهر • لم تعط ذلك اهمية تذكر ، فقد تعودت عليه واصبح شيئا مرتبطا بحياتها الجديدة • ولكن الاحساس به شيء لا يمكن دفعه او التغلب عليه ــ مجرد احساس خلقته حقيقة وصولها الى البئر فبعد ان اطمأنت الى ان الماء قد اصبح فى متناول يدها انصرف تفكيرها دون ادراك الى ما اضاعته من وقت منذ ان حضرت الى هنا •• ومع انها تعرف تماما ان ليس لها يد فى ذلك الا ان احساسا بالضيق بدا على وجهها ورغبة فى البكاء تملكتها ولم يستمر هذا وقتا طويلا ، فيدها الآن مستندة على حافة البئر •

امسكت الصفيحة باحدى يديها وباليد الاخرى قبضت على الحبل فى قوة ، والقت بالصفيحة داخل البئر • لم تسمع صوت ارتطامها بالماء • ولكن ما سمعته حقيقة كان صوت ارتطام صفيحتها بجسم صلب حجر •

تطاولت بعنقها وأخذت تنظر الى قاع البئر •• ما رأته اصابها بدهشة كبيرة •• تراجعت كالخائفة ودقات قلبها كنوبة القادرية فى المولد النبوى تكاد تقفز من صـدرها •• البئر تضن بمـائها ••• وعاودها جفاف اللسان والحلق •• عاودها الألم الممض مرة أخرى •

انتظرت فى صبر •• الماء ينساب فى بخل من جدار البئر •• ماء اصفر كالذهب •• كالذهب فى كل شىء •• فى لونه وفى ندرته طابور النسـاء ورائها يتكون من جـديد •• انفس كثيرة ، ضئيلة سوداء تنتظر مثلها •• الفجر مضى ، الصبح مضى ، النهار مضى ، الطابور الطويل يثرثر ليقتل الملل ، وليجعل من الانتظار حلاوة ، فاكهـة • دولى تنظر الى صفيحتها ورائحة البئر الرطبـة الطرية الغريبة تلفح وجهها وتملأ رئتيها •

بيديها الاثنتين اخذت تشـد الدلو •• كان خفيفـا لا يتطلب شده مجهودا •• وكانت تود لو كان ثقيلا ثقلا يجعل الدم ينزف من أصابعها •• يحيلها الى اصابع خشبية مشققة يابسة • ولكنه كان خفيفا وكان بمقدورها ان تجذبه باثنين فقط من اصابعها •

امسكت الصفيحة بيدها ووضعتها امامها وأخذت تحدق فيما احتوته •• كان ما بهـا من الماء يصـل الى الربع ، اصفر ، ثقيـل كالرمل • وضعتها على رأسها واستوت واقفة واخذت تسير فى تمهل •• لسانها جاف وحلقها اكثر جفافا وطابور النسـاء خلفها يثرثر ويزحف نحو البئر •

نهاية الرجل المريض

لم تكن الكلمات هى التى تخيفه وترسم امام عينيه صورة الموت البشعة التى كان يحاول بكل ما أوتى من شجاعة ان يبعدها عن خياله ، ولكن ذلك التنغيم ... ذلك التلوين الغريب فى الصوت ، والتحكم المطلق المعجز فى الحبال الصوتية التى تستطيع ان تصدر مثل تلك الأصوات •• الكلمات نفسها عادية وسمعها مئات المرات ، ولم تكن تعلق بذهنه أو تسبب له قلقا•• هو نفسه كان يقولها لمجرد انها شىء مما تعود الناس على قوله اذا ما الت بهم كارثة أو اصابهم مكروه •• دايم هو •• دايم هو •• دايم الله • ولكنها ابدا لم تكن تقال بتلك الصورة • الكلمة تنطلق فى الفضاء وكأنها صادرة من ميت ، تموجات غريبة تغلفها وكأن فضاء لا حدود له يحيط بها •• التتابع السريع للكلمات المنطوقة بعشرات الافواه كان يكسبها نوعا من البشاعة لا مثيل له •• الاصوات كانت كلها تشترك فى انها ذات حشرجة وجفاف ، ولكن صوتا رفيعا كان يندس بينها فيطفى عليها

جميعا عندما يصل الى كلمة : (هو) • الواو يمط لدرجة المبالغة حتى يعلق بحرف الدال فتقال العبارة هكذا : « دايم هو •• دايم هو •• دايم الله » • تقال وكأن من نطق بها يرى الموت على بعد خطوتين منه ، كأنه يجد لذة تفقد الحواس فى التقرب اليه ••• كأن الموت هو المكافأة الكبرى التى لا يطمع الانسان فى اكثر منها •• صوت النحاس المصاحب فى ضجيج يصم الآذان وفى ايقاع واحد رتيب كان يجسد من بشاعة الصورة فيتخيله وكأنه طبول تدق فى قبره •• تل • تل • تل • تل • تل • تل • تل • تل • فى انسجام مدهش مثير مع الاصوات الخشنة المبحوحة ذات التوقيع المنتظم الرتيب :

دايم هو •• دايم هو •• دايم الله •

الصورة تتجسم فى ذهنه وتكتسب الابعاد والحدود وكأنها اصبحت كائنا خرافيا فيه كل الخبث وكل اللؤم يترقب مقدمه ليتلقفه دون رحمة فينهى كل عذاباته ويضع حدا لمأساة حياته الطويلة التعيسة •

الظلمة تغلف المكان وهو قابع فى فراشه فى صمت تقطعه بين الحين والحين نوبات من السعال الحاد •• رأسه بين كفيه وعيناه تنظران الى الأرض •• ومن بعيد كانت تأتيه تلك الاصوات فتزيد مما يحس به من هلع •• ودق الطبل رغم بعده كان يشعر به وكأنه هنا معه فى غرفته الضيقة المظلمة •• لا يدرى متى سمعها لأول مرة

•• ولكن الشيء الذى يعرفه تماما هو ان تلك الأصوات ليست الا اشارة وعلامة مؤكدة لموت واحد منهم •• والغريب فى الأمر انه لم يحدث ان سمعها بالنهار •• دائما فى الليل •• وفى وقت متأخر منه •• كان مجرد حـدوث الوفاة فى الليـل يكفى لأن يؤكد له ما للموت من رهبة •• ففى الليل تحدث كل الأشياء الكريهة •• حتى السعال الدموى الذى يفتت جسده وينخر فى رئتيه كالسوس لا تشتد حدته ويبلغ ذروة قسوته الا فى الليل •

تل • تل • تل • تل • تل • دايم هو ـ دايم هو •• دايم الله • تل • تل • تل • تل • تل • من مات منهم الليلة يا ترى ؟ فى الأسبوع الماضى مات شيخ ود الطيب • اخبرته بذلك ستنا عندما أحضرت له عشاءه • (هذه المرأة لا تكف عن الذهاب الى القبـة وتقصى أخبار أولئك الناس ، وتعرف كل كبيرة وصغيرة عنهم ••• تعرف المريض والمعافى ، والمسافر ومن على وشك السفر ، ومن لقى ربه ومن هو على وشك ان يفعل ذلك •• وتروى عنهم الحكايات والمعجزات الخارقة •• ويداها لا تعـودان ابدا فارغتين •• دائمـا محملتان بالزوارة حتى تكومت عندها بالارطال) •• قالت انه لم يكن مريضا بل كان فى صحة الحصان •• صحة تهد الجبل ، ومع ذلك فقد دعا اليه ذويه وطلب كوزا من الماء •• وعندما شربه تمدد على فراشه وتشهد واسلم الروح •

أخذت الاصوات تقترب وكان دق الطبل يطغى عليها •••

ولكن الصوت الرفيع الحاد كان ينطلق من بينها ويشق الفضاء فلا يسمع شيء سواه •• وتعود الاصوات الى الخفوت والرتابة مرة اخرى ولكن قرع الطبل يظل كما هو في ايقاعاته الرتيبة المنتظمة تل • تل • تل • تل • تل • تل • وتمضى فترة قصيرة وينطلق الصوت الرفيع مرة أخرى : دايم هو — دايم هو •• دايم الله •

لم تحضر ستنا اليه ، ولم يستغرب ذلك ، فقد كان يعرف انها في القبة تبكى وتثكل وتنتحب •• اسوأ ما في الأمر انه سينام دون أن يتعشى ، وهى تعرف ذلك•• تعرف انها ؟ ولا أحد سواها ؛ المسئولة عن اكله وشربه منذ ان وضعوه في تلك الغرفة من حوش حامد •• والغريب في الأمر ان تسمح لها نفسها بان تفعل ذلك دون ان تتألم ، دون ان تحس بانها ترتكب خطأ عظيما في حقه •• تعرف انه بدون اكل لا يمكن ان يعيش ، ومع ذلك تستخف به ولا تعيره أدنى اهتمام •• لم تكن مجبرة على خدمته •• فهى ليست ابنته ولا تمت اليه بصلة دم •• ولكنها منذ آن كانت طفلة تربت ونشأت في هذا الحوش الكبير •• هو الذى كان يرعاها ويطعمها ويكسوها حتى اصبحت امرأة تعدت الثلاثين •

في الواقع لم يكن موضوع العشاء يهمه كثيرا ، فقد بات ليالى كثيرة دون ان يقربه •• يتركه بجانب الباب حتى الصباح دون أن يمسه وتأتى ستنا وتأخذه دون ان تسأله لماذا لم يأكله •• فقد الرغبة في الأكل منذ ان اصابه المرض •• شهيته التى كانت ممتازة

فى شبابه ، وحتى قبل ان يصيبه ذلك الداء ، انعدمت تماما **الآن** ..
لم يعد يأكل الا ليظل على قيد الحيـاة .. كان يأكل بسرعة ليملأ بطنه فى أقصر وقت .. الذى كان يغضبه ويؤلمه فى نفس الوقت هو ان ستنا لم تحترم شيخوخته ولا راعت مرضـه ، بل انه اخذ فى الايام الاخيرة يلاحظ انها قد اصبحت تضيق به وتتذمر مع انه لا يكلفها الكثير ولا يجبرها على خدمته ولا يطلب منها ان تفعل المستحيل من أجله .. ولكن القبـة وسـاكنى القبة هم سبب كل ذلك .. مؤكد .. لا يكفى ان تلك الأصوات الكريهة تنطلق منها كل يوم فتقلق راحته وتغرس الخوف فى قلبه وتجعله يحس بانه فى طريقه الى النهاية . لا يكفيها كل هذا ، بل تخطف ستنا ايضا ، وتجعلها خادمة للاوليـاء تقضى نهـارها وليلها بينهم ... تخدمهم بعيونها وتقبل ايديهم وأرجلهم ، وتغسـل ملابسـهم وتعد طعامهم وتتمسح بترابهم ، وتفعل كل شيء من أجل خاطرهم .

وهاجمته نوبة اخرى من السعال جعلت جسمه الهزيل يهتز بشدة .. وتقيأ دون مجهود . كان سعالا جافا مصحوبا بصفير رفيع، تتخلله شهقات متتالية تسمح بدخول كمية من هواء الغرفة الملوث الى رئتيه المريضتين .. ولكن النـوبة لا تنتهى ، بل تزداد فى حدتها حتى يتقلص وجهه ويحس بأن يدا جبارة تكتم أنفاسه .. تتسع فتحتا الأنف فى محـاولة لاقتناص اكبر كميـة من الهـواء الذى لا يدخل منه الا القليل .. ولكنه مع ذلك .. وبكل ما فيه من رغبة

فى الحياة يفتح فمه على آخره ويشهق ويزفر منه ، وأصابع يديه قابضة على فراشه فى قوة انكماش جبارة وكأنها قد تخشبت عليه•• وعنقه الذى انتفخت عروقه استطال وامتد الى خارج النافذة الضيقة ليسمح لأنفه وفمه بشهق هواء الليل الوفير •

كان يلهث ، وصدره الضامر المكدود يعلو ويهبط فى تتابع سريع ، وفمه المفتوح فى شراهة يطرد من الهواء اكثر مما يأخذ•• جسمه مقوس الى الأمام ، ويداه قابضتان على سياج النافذة تحميانه من السقوط اذ ان اكثر من نصف جسمه كان خارجها ••• كان فى حالة رعب كاد يفقده عقله •• لأول مرة انتابه احساس من يعرف انه على وشك الموت •• وكان مجرد تفكيره فى ذلك يدفعه لأن يزيد من سرعة تنفسه وبالتالى سرعة استهلاكه لكميات الهواء الضخمة التى كان يستنشقها فى نهم •• ادرك ان الهواء هو الشىء الوحيد الذى يمكن ان ينقذه •• ادراكه لتلك الحقيقة اكسب جسده المنهوك بعض القـوة ، فطفق دون ارادة وبدون وعى يفتح فمـه ويبتلع الهواء كما يبلع الطعام ، وكأن مجـرد دخـول الهواء الى جسـمه ، بغض النظر عن أى طريق يتم ذلك ، كفيـل بان يبعد عنه الموت ويعيده الى الحياة •

وبعد جهاد طويل شاق استمر لاكثر من نصف الساعة ردت اليه روحه •• ارتخت عضـلات اليدين ، واختفت حبـال الدم من العنق ، وهدأ تنفسه •• وضاقت فتحتا الأنف •• وانبسطت عضلات

الوجه •• وتمدد على فراشه •• ساقاه متلاصقتان ويداه متشابكتان فوق صدره وعيناه تنظران الى سقف الغرفة في ذهول •

لم يغمض عينيه ، فلم يكن يحس بالنعاس ••• لا يدرى ما الوقت الآن •• لا بد ان يكون بعد منتصف الليل •• مجرد احساس لا اكثر مصدره السكون والظلمة المحيطة به من كل جانب • المنازل المجاورة أطفئت أنوارها منذ وقت طويل ••• وبصيص النور الذى كان يأتى الى غرفته متسللا من شق بباب غرفته الموصد والذى لا يعرف من اين يجيء ، انطفأ ولم يعد يضيء ذلك المستطيل الرفيع من ارضية الغرفة ، كل شيء يدعو الى نوم هادىء عميق لا يتخلله كابوس •• ولكن الأصوات التى كان قد نسيها تماما منذ ان هاجمته تلك النوبة الحادة من السعال ، عادت تطرق اذنيه من جديد فى عنف وفى صخب هائل •• تل • تل • تل • تل • تل •• دايم هو ـ دايم هو ـ دايم الله •• تل • تل • تل • تل • تل •

فجأة أخذ يبكى •

كان بكاء رجوليا بصوت متحشرج •• ولم يكن انعكاسا لألم يخفف البكاء من قسوته ، ولكنه كان بكاء انسان يرثى نفسه ويجد فى البكاء التعبير الوحيد عما يحسه من ازمة نفسية عميقة لها جذور كثيرة متشعبة فى داخل تلك النفس •• لأول مرة منذ سنوات كثيرة مضت امتلأت عيناه بدموع حقيقية لا تجف •• لقد اصبح وحيدا

الآن .. يعيش بعيدا عن الناس .. اخوه مالك الحوش والخدم اول من تنكر له وابعده عنه والقى به فى تلك الغرفة الضيقة القائمة فى طرف الحوش المهجور الذى يأوى بقر اخيه وجماله وعرباته ... وحرم على أولاده وأهله زيارته . ولم يعد احد يسأل عنه بعد ذلك .. لعن الله المرض .. هو الذى فعـل كل ذلك .. لو لم يصبه هذا المرض لظل محمد اخوه على حبه له وعطفه عليه .. فهو اخوه الكبير وليس له احد سواه .. ولكن .. يا للخسارة ! الانســان يتغير بسرعة .. الطيب يصبح شريرا .. الصالح يصبح فاسدا ، الكريم يصبح بخيلا .. الأصيل يصبح مزيفا .. عندما بصق الدم لأول مرة جزع جزعا شديدا وجزع اخوه اكثر منه ، ولم يستطع ان ينام تلك الليلة . وقال له انه سوف يذهب به الى المستشفى عند الفجر لأن مرضه خطير للغاية .. وشكره على اهتمـامه به لهذا الحد .. ولكنه يعرف الآن ان كل ذلك الاهتمام من جانب شقيقه ، لم يكن دافعه خوفه عليه ورغبتـه الأكيدة فى ان يتم علاجه ... ولكن ليبعده عنه وعن أولاده وبيته .

الدموع المنثـالة على خـــديه لم تتوقف ابدا ، والتشـنجات المصاحبة لبكائه المسموع تملكت جسده كله .. وكانت تمر لحظة ينقطع فيها بكاؤه ، ويجفف وجهه ويتمخط، ولكنه سرعان مايعاوده فى قوة انفعال اشد واعنف .. كأن كل قطعة فيه تبكى ، تغلى ، تنصهر .. وتمر لحظة اخرى تخفت فيها حـدة البكاء وينقلب الى نهنهة خافتة لا تكاد تســمع تقطعها بين الحين والحين تاوهات طويلة

ممدودة تستمر فترة من الوقت يواصل بعدها بكاءه الرهيب مرة أخرى ٠

هو من نفسه كان سيفعل ذلك ٠٠٠ يهجر البيت ويعيش في اى مكان آخر ٠٠ أولاد محمد اولاده ويحبهم مثلما يحبهم محمد وربما اكثر منه ٠٠ مؤكد لا يقبل ان يبقى بينهم فيعديهم بمرضه وربما تسبب فى هلاكهم ٠٠ الأمر لا يحتاج الى تفكير كثير ٠٠٠ شيء واضح مثل الشمس ٠٠ قلبه لم يكن غليظا ابدا فى يوم من الايام ٠ حب النفس لم يعرفه بتاتا ٠٠ كان سيفعل ذلك لو فقط اعطوه الفرصة بدلا من تلك المناورة ٠٠ ما ارادوه له وما أراده هو لنفسه حدث كما كان يتصوره ٠٠ ولكن الذى يؤلمه ولم يستطع تقبله ولا هضمه هو عدم سؤالهم عنه ٠٠ كأنه ليس منهم ٠٠ كأنه فطيسة تثير التقزز ٠٠ كأنه مقطوع من شجرة مع انه من نفس دمهم ولحمهم ٠ حتى ستنا هى ايضا تجاهلته ، ولم تعد تخدمه وتحبه كما كانت تفعل فى الماضى عندما كان فى صحته وقوته ٠٠ تركته الجاحدة عندما اصبح لا نفع يرجى منه ٠٠ مثل الخرقة القديمة المهملة ٠٠٠ لو فقط اشعروه بأنه منهم واليهم ، بأنهم يتألمون لمرضه مثلما يتألم هو تماما ، لو فقط اطلوا عليه من نافذته والقوا اليه بتحية الصباح ٠٠ لو فقط فعلوا هذا لكان بلا ادنى شك اسعد حالا مما هو عليه الآن ٠

وجفف وجهه فى مسكنة ٠٠٠ وأمتدت يده تتناول القلة الموضوعة بجانب فراشه ، وتجرع منها قليلا ٠

ظل على رقدته دون ان يتحرك يحدق فى ظلام الغرفة والسكون المحيط به لا يقطعه سوى صوت تنفسه ودق الطبل القريب تل • تل • تل • تل • تل • والاصوات البشرية وهى تردد دايم هو ــ د ــ دايم هو ــ د ــ دايم الله • ولمح من خلال نافذته بصيصا متقطعا من النور يظهر ويختفى فى ذبذبة واضحة •• وسمع صوتا جديدا لم يكن قد سمعه من قبل•• صوت اقدام فى خطى مسرعة• واستطاع ان يرى حلقات من الغبار تتصاعد فى الهواء وتدخل غرفته وتكتم انفاسه •• لا بد انهم الآن بقرب النافذة فى طريقهم الى المقابر •• واختلطت الاصوات كلها فى تمازج غريب •• واصبحت اشد ما تكون وضوحا وكأنها تنبعث من غرفته •• والنور المتقطع يظهر ويختفى فيصيبه بالدوار •• ولكنه كان فى حالة هدوء • ظل كما هو دون ان يرفع رأسه •• انهدت قواه واحس بهبوط شديد •• تنفسه اصبح بطيئا للغاية •• حاول ان يحرك شفتيه •• ولكن حتى تلك الحركة الأرادية البسيطة اصبحت بالنسبة له عملية شاقة تتطلب قدرا كبيرا من القوة •• لم يفكر فى هذا التحول الخطير الذى طرا عليه ، اذ ان القدرة على التفكير كان قد فقدها تماما • اصبح شيئا ممددا لا يتحرك ولا يفكر ، ولكن كان بمقدوره ان يسمع الاصوات وهى تخترق اذنيه وقد ازدادت صخبا وعنفا : تل • تل• تل • تل • تل ، دايم هو ــ د ــ دايم هو ــ د ــ دايم الله •



شجرة الورد

كان عادل ينظر الى والده وهو يغرس جذع شجرة الورد فى الطين الأخضر الرطب ••• كان يعرف منذ الصباح أن والده عبد القادر سيعود من السوق ومعه الشجرة ، فلم يكن يكف عن الحديث عنها لحظة واحدة منذ ان استيقظ من نومه وأخذ يستعد للذهاب الى عمله •• قال له وهو يشرب شاى الصباح ، انه سوف يحضر معه شجرة ورد ليزرعها بديوان المنزل بالقرب من شجرة الليمون •• وقال ايضا ان منظر الورد شيء جميل ترتاح اليه النفس ويجعل من البيت جنة وطلب منه ان يحافظ عليها ويرعاها ويداوم على ريها بالماء كل صباح •

رأى والده وقد اخذ العرق يسيل من وجهه وهو يقوم بعملية الغرس اقترب منه ، ومد يده ليزيح اكوام التراب الصغيرة التى تجمعت حول الحفرة •• ولكن نظرة واحدة من عينى والده جعلته يسحب يده لتعود الى سابق وضعها على حجره بجانب اختها •

وظهر طارق ، اخوه الذى يصغره بعامين ، وجلس بجانبه وأخذ هو الآخر ينظر الى ابيه والى شجرة الورد ذات الاوراق القليلة المتناثرة على ساقها الطويل الأخضر •• كان هو ايضا يعرف ان اباه سيعود ومعه الشجرة ليغرسها فى البيت •• سمع والده يقول انها شجرة جديدة ، تختلف عن بقية شجر البيت ، وانها ستكون اجمل شجرة عندما تكبر ويظهر وردها الأحمر •

وانتهى عبد القادر من غرس الشجرة •

نهض واقفا ، وجفف العرق من وجهه وصدره ، واخذ ينظر الى الشجرة الصغيرة •• ابتسم ابتسامة كبيرة والتفت الى ولديه الصغيرين ، وجلس بجانبهما ، وأخذ الثلاثة ينظرون الى الشجرة•

قال عادل :

ـ خلاص زرعتها ، يابا ؟

وأجابه ابوه :

ـ خلاص • المهم تحافظوا عليها •

قال عادل :

ـ انا بسقيها كل يوم •

قال طارق :

ـ وأنا بغطيها من الشمس •

قال عبد القادر :

ـ انتوا ولاد شطار وانا مبسوط منكم •• يللا عشان نمشي نتغدى •

وجلسوا يأكلون •• وسرح ذهن عادل في الشجرة الصغيرة القائمة في الجدول بقرب شجرة الليمون •• لم ير في حياته شجرة صغيرة كهذه •• شجرة ورد •• وكان لا يكف عن سؤال نفسه : متى يظهر عليها الورد الأحمر ؟

لم يأكل كثيرا •• ذهب وغســـل يديه ثم مشى الى الديوان وجلس على الأرض بقرب الشجرة ينظر اليها مشدوها وفي حيرة شديدة •• وما هي الا دقائق حتى رأى شقيقه طارق يجلس الى جانبه وينظر مثله الى الشجرة في نفس الحيرة •• لم يفتحا فمهما بكلمة •• ظلا صامتين وقتا طويلا •• ينظران •

وعند العصر ، ارتدى عبد القادر ملابسه ودخل الديوان • رأى عادل وطارق جالسين أمام شجرة الورد وقد ربعـا أيديهما ، وعيناهما لا تتحولان عنها•• ابتسم لهما ، وظل برهة يحدق مثلهما، ثم ربت على رأسيهما وانصرف خارجا من المنزل •

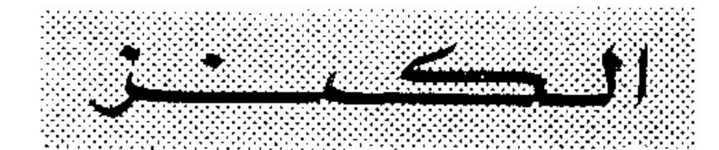
وعند منتصف الليـل دخل عبد القـادر بيتـه بعد ان امضى سهرته بالخارج •• لم يكن يتوقع أن يرى عادل مستيقظا حتى ذلك الوقت المتأخر •• رقد بجانبه على الفراش (عادل يصر دائما على الرقاد بجانب والده) بعد أن أطفـأ النـور •• كان يحس بتعب

شديد بعد عمل مرهق فى الصباح وسهرة قاتلة فى الليل مع بعض الأصدقاء •• النوم كان يتلمس طريقه اليه فى هدوء •• عضلات جسمه اخـذت ترتخى فى كسـل لذيذ ، ونسيم تلك الليلة كان يدغدغه فى لطف وتخدرت أطرافه وثقلت اجفانه •• وجاءه صوت عادل هامسا فى حزن :

ـ بابا ، طارق كسر الشجرة !

ومضت دقائق كثيرة •

وفتح عينيه ، ورفع رأسه ثم استوى جالسا فوق الفراش •• لم يقل شيئا •• التفت الى عادل فوجـده قد غادر الفراش وذهب لينام بجانب امه التى كانت تحتضن ابنها طارق بكلتا ذراعيها ••• وظل على جلسته تلك وقتا طويلا •• بعدها تمدد على الفراش مرة أخرى ، واشعل سيجارة وأخذ ينظر الى النجوم •



الكنز

لم يكن عصام الصامت الوحيد فى تلك الساعة من ذلك النهار •• كان يرفع عينيه فيرى الوجوم على وجه اخته الكبيرة سلوى • ويلتفت الى فاطمة فيرى وجهها الجميل سابحا فى العرق •• نعيمة ترسم خطا على التراب بأصبع قدمها الكبير ، وماجد الصغير يقف مستندا الى الحائط وقد اكتسب صرامة ، وهدوءا غريبا • لم يعهد فيه من قبل •• وكانت الأم زينب مستلقية على فراشها وقد توسد رأسها ذراعها الأيسر ، وكانت صامتة وهذا شيء عجيب •• فليس من المعقول ان تظل زينب صامتة كل هذا الوقت وهى التى اشتهرت بحنجرتها العظيمة ومقدرتها التى لا يجاريها فيها احد فى اطلاق الصيحات الغاضبة التى يتلقاها أولادها بسبب (وفى أغلب الأحيان دون سبب) ، وتتلقاها كذلك الكلبة المدللة جينى باستخفاف لا مثيل له •

الكلام فى تلك الساعة كان عملية شاقة تتطلب مجهودا عنيفا ، حتى بالنسبة لعصام الذى لم يتعود ان يلزم الصمت هكذا .. انه يحب ان يفتح فمه دائما ليقول ما يجول بذهنه ، وكان هناك دائما شيء يجول بذهنه .. الكورة .. السينما .. مشاجراته مع اولاد الحلة .. لم يكن هناك فراغ فى ذاك الرأس الصغير .. هناك شيء ما .. دائما .

وقف على قدميه ..

وتقدم خطوات الى الامام قاصـدا باب المنزل الخارجى ... وهنا ــ وكان لا بد ان يحدث هذا ــ رفعت زينب رأسها ونظرت اليه فى حدة :

ــ ماشى وين ؟

لم يفتح فمه بكلمـة .. قابل نظراتها بنظرات تحمـل معنى الاستفهام اكثر مما تحمل من الاستنكار .

وجاءه الصوت الغاضب مرة أخرى :

ــ ماشى وين ؟

فى هذه المرة فتح عصام فمه وقال فى هدوء :

ــ الشارع .

واعتدلت زينب لتواجهه ، وقالت فى حدة :

ـ شارع ! ده وقت تطلع فيه الشـــارع ؟ انت ما عارف الفى الشارع شنو ؟ ما سامع الرصاص ؟ اقعد هنا بلا قلة ادب •

ولكن عصام ظل واقفا • كان من اصعب الامور على نفســه اقتناعه بأن يظــل بالبيت فى مثــل هــذا الوقت •• كل النــاس فى الشارع !

والتفت الى أمه •• لم يفتح فمه •• اخذ ينظر اليها ثم الى الارض ، وكانت يداه متشابكتين خلف ظهره •• كانت هيئته تدل على انه غارق فى تفكير عميق•• رفعت سلوى رأسها وأخذت تحدق فيه •• وتركت نعيمة العبث بالتراب وطفقت تمعن النظر فى وجهه •• اما فاطمة فقد اعترتها دهشة كبيرة ممزوجة بخوف حقيقى •• رأت فى صمت عصام وفى مظهــره الجــاد ما يوحى اليها بان ذلك الرأس الصغير ينوى ان يرتكب حماقة •

حدث كل شيء فى لمح البصر • ادار عصام رأسه ناحية باب الشارع •• وفى قفزة واحدة كانت قدماه تطيران به الى الشــارع بعد ان اطلق من فمه هذه الكلمات :

ـ انا ماشى المظاهرة !

لم يستغرق الامر كثيرا لتكتشف زينب حقيقة ما حدث •• فى الحــال نهضت من فراشها واتجهت صوب البــاب تتبعها سلوى وفاطمة ونعيمة وماجد •• وعلى عتبــة البــاب افرجت عن امكانيات

حنجرتها العظيمة فانطلق صوتها يتحدى الهتافات المدوية التى كانت تصل اليهم فى ذلك الشارع الضيق من شوارع ام درمان •

ـ عصام •• عصام •• يا ولد •• يا ولد !!

كانت تحاول عبثا ، وكانت تعرف تماما ان عصام لن يسمعها• بل وكانت تعرف اكثر من ذلك •• حتى لو سمعها فانه لن يستجيب لندائها •• عادت الى الداخل وتلفحت بثوبها وخرجت من المنزل•

وعاد البيت الى الصمت من جديد •• القلوب الصغيرة تدق دقات خوف سريعة •• العيون قلقة تتطلع ناحية الباب ، تترقب فى لهفة دخول عصام بين لحظة وأخرى •

ودوى انفجار من بعيد وانخلعت قلوب الصغار ، ايديهم على صدورهم :

ـ عصام !

وازداد قلقهم العظيم لفترة من الوقت طويلة •

وعندما اخذت شمس ذلك اليوم فى الغروب دخل عصام الى المنزل تسبقه ضحكات خبيثة دون ان يدرك ان ثمة نفوسا كانت منذ ساعات مضت تعانى قلقا وجزعا شديدين •• دخل وهو يضحك ضحكات غريبة وقد امسك بين يديه شيئا ملفوفا فى قطعة كبيرة من الورق محاولا جهده الا يرى احد ما تحمله يداه • لم ينظر فى العيون المحمرة من شدة البكاء • لم يلتفت الى الشفاه الجافة التى لم

تتذوق قطرة من الماء منـذ وقت طويل • كان كل همـه ان يثير فضولهم وتساؤلهم عما تحمله اصابعه النحيلة تلك •

قال لهم بين ضحكاته الصبيانية اللطيفة :

ـ الليلة •• يا بوى • عندى حاجة ما معقولة • اللى يعرفها ليه قرش •

ونجح الطفل العفريت فى اثارة فضولهم • تطلعت اليه عيون اخوته فى تساؤل :

ـ شنو ؟

ولكنه أجاب وهو يقفز فرحا :

ـ انا عارف ! قولوا انتو •

وقالوا كل ما عندهم ، ولكنه كان يقول لهم :

ـ كذبا كاذب •

اخيرا بعد ان اعيـاهم التخمين •• امتدت اصابعه الصـغيرة تكشف الغطاء عن سر ما تحمل •• قنبلة غاز مسيل للدموع ، مطلية باللون الاحمر •• قنبلة لم تستعمل بعد •

تجمعوا حولها فى استغراب ينظرون اليها من كل الزوايا •• الى رأسها المخروطى الشكل •• الى قاعدتها المستديرة •• الى قطعة المعدن الفضية التى هى بمثابة المفتـاح المدمر •• كانوا يفحصونها

بعيونهم فأصابعهم المرتعشة لا تستطيع ان تمسها •• اذن فهذه هى القنبلة !•• « لقيتها وين يا عصام ؟ » •• « حسه كان طرشقت فيك ؟ » •• « يا ولد انت مجنون ، امشى ارميها ! » •

وضحك عصام كما لم يضحك من قبل •• اهتز جسمه كله فى فرح صبيانى غريب •• وأخذ يرقص والقنبلة بين يديه تمسكان بها فى قوة كالكنز الثمين •

أخيرا قال :

ـ أهو دلوقت عندى سلاح •• الشدة بالعضل !

وجءت زينب وجسمها يسبح فى انهار من العرق ، وصدرها يهبط ويرتفع مع انفاسها اللاهثة ، وفمها جاف مثل الحطب ••• ورأت عصام امامها ، وانطلق الصوت العجيب •• وتحمل عصام كل قذائفها فى غير اكتراث •• انه الآن فى عالم آخر •• قنبلة فى يده •• من مثله الآن ؟

لم يفرط فى كنزه الثمين قط •• عندما ذهب الى فراشه فى ليل ذلك اليوم ، كان حريصا على أن يضع القنبلة فى مكان امين لا تمتد اليه يد • ولم يكن هناك مكان انسب من صندوق حذاء قديم كانت تضع فيه فاطمة بعض ادواتها المدرسية •• ثم حمل الصندوق ووضعه فوق دولاب ملابسهم •• ونظر اليه مليا وابتسم ، ثم عاد الى فراشه بجانب نعيمة •

كانوا كلهم نائمين ، وبقى هو ساهرا لا تغمض له عين ••
غدا فى الصباح عندما يخرج الى الشــارع خلســة ويجتمع باولاد الحلة ، سيقول لهم : « انظروا ماذا احمل فى يدى » ، لن يصدقوه فى أول الأمر •• ولكن عندما يشاهدونها بين يديه سوف يصابون بدهشة كبيرة ويفركون اعينهم مرتين وثلاثا حتى يتأكدوا من ان بصرهم لم يخدعهم •• بعد ذلك يقول لهم : « الى المظاهرة ! » •• لن يخافوا وسيذهبون معه فهناك ســلاح فى أيديهم •• ســيتقدم المظاهرة ويقودها لانه يحمــل الســلاح •• اما الجنــود فانهم لن يقربوهم عندما يرون فى يده قنبلته العظيمة •• الناس الذين يقفون فى الشارع سيصفقون لهم وينضمون الى مظاهرته الكبيرة ، ويحملونه على اكتافهم وهم يهتفون •• ولكنه لن يعطى القنبلة لاحد • انهم لا يعرفون كيفيــة استعمالها •• هو صاحبها •• وهو الذى يعرف كل اسرارها •• وعندما يعود الى البيت فى النهــار والعرق يملأ جسمه والظمأ يكاد يقتله ، سيقص كل شىء على امه واخوته ••• لن يصدقوه ، ولكنه سوف يقســم لهم بروح جــده ان ما قاله هو الحقيقة •

البحث عن خالى

وصلت الى المدينة بقطار الليل الذى تأخر كثيرا عن ميعاده المحدد للوصول •• كان الوقت يقرب من الفجر •• امسكت بالربطة التى وضعت فيها ملابسى وما تبقى من الزاد ، وانتظرت بباب العربة حتى هبط كل الركاب ... ثم نزلت بدورى وأنا لا أكاد أرى قدمى لشدة الظلام •

كانت الليلة باردة •• فنحن الآن فى أول شهر ١٢ • الجلباب الذى كنت أرتديه كان خفيفا لا يقى من البرد ، فقد مضى عليه زمن طويل أبلاه وعمل فيه ما لا يعمل ، فأصبح اخف من السكروتة •• ولم اكن اضع عمامة تحمى رأسى من لسعات البرد ••• ومما يزيد الامر سوءا ان شعر رأسى كان قليلا خفيفا كما هو شأن اخوتى جميعا • الشتاء هنا فى المدينة يختلف عنه فى بلدتنا الصغيرة التى جئت منها • هناك كنا نوقد النار خارج الصريف ونجلس حولها ونقول الدوبيت ونتعشى ونشرب الشاى ونلهو •• ولكن هنا

يختلف الأمر كما أخبرنا اخونا وصديقنا محمد عبد الرافع ••• فأبناء المدن لهم حياتهم الخاصة ، ومشاغل هذه الحيــاة ترغمهم على اللجوء الى بيوتهم مبكرين خوفا من البرد المجنون الذى لا يعرفون كيف يتغلبون عليه •

شــددت الجلبــاب على جسمى من الأمام حتى أقى صــدرى المكشــوف من وخــزات البــرد ، ووضعت الربطة على الأرض ، وأخــذت ادعك راحتى فى سرعــة وانفخ فيهما حتى اجلب الدفء اليهما •• ولكن البرد كان شــديدا •• والمحطة العارية من المبانى كانت تملأنى احساسا بأنها تزيد من وطأته وقسوته •• ولكن كان لا بد ان اواصل الســير •• امســكت بالربطة مرة أخرى وطفقت أسير •

خمسة عشر عاما مضت منذ أن رأيت هذه المدينة • بعدها لم أغادر بلدتى ، ولم افكر يوما فى مغادرتها •• كنت اعمل مع والدى فى دكان صغير يدر علينا بعض المال •• ولكن عندما توفى والدى ـ الله يرحمه ـ سطا اللصوص على الدكان ولم يتركوا لنــا شيئا بتاتا •• وحل الخراب بأسرتنا •• أخذ اخى الكبير اسماعيل يعمل بالزراعــة ، وظللت انا بالبيت دون عمــل فلم اكن أحب أن اعمل بالزراعة •• كنت كسولا بطبعى •• ولم يفلح زجر امى واخى فى اثنائى عن رأيى •• كنت صلبا عنيدا ناشف الرأس •• وعندما رأت امى ذلك العناد والاصرار ، نصحتنى بأن اســافر الى خالى الطاهر

لنبحث لى عن عمل بالمدينـة •• ولم اتردد •• وضعت ملابسى فى ربطة وتزودت ببعض الكسرة واللحم وأخذت أول قطار •

لم أكن اعرف عمل خالى ، ولم تخبرنى امى بشىء عنه • كل الذى ذكرته لى هو ان اسمه الطاهر ود فضل المولى وانه يقطن فى حى البوارق ، وان كل الناس يعرفونه •

الظلام ما زال منتشرا ، واشتد البرد عن ذى قبل ، وأحسست بلسعاته تخترق جلدى وتؤلم عظمى •• ورغم اننى كنت اسير فى سرعة حتى اكتسب الحرارة والدفء الا ان ذلك كان قليل الفائدة •• توقفت عن السير ، ووضعت الربطة على الأرض • ثم اخرجت منها الجلباب الثانى والشال •• كان الجلبـاب أبيض ونظيفا جدا ، وكنت أرغب فى ان ارتديه فى الصباح عندما اخرج مع خالى الى السوق ، ولكن ذلك البرد المجنون ارغمنى على ان ألبسه الآن فوق الجلباب الأول •• وحقيقة احسست ببعض الدفء •• وعندما ابتلعت بعض الكسرة واللحم تحسنت حالتى كثيرا ، وأصبحت اكثر احتمالا على مواجهة البرد ومواصلة السير •

لم أر خـالى (ولا أدرى ان كنت قد ذكـرت ذلك فى اول القصة) منذ خمسة عشر عاما • كنت وقتها طفلا صغيرا • وكنت وأمى نسكن معه فى بيته عندما كان والدى ـ الله يرحمه ـ مريضا « بالاسبتالية » •• اخبرتنى امى انه كان يحبنا لاننا ابناء شقيقته •

وقالت لنـا انه كان يحملنى فوق كتفـه ويذهب بى الى الســوق ويشترى لى الحلوى واللعب ولكنى لا أتذكره الآن ٠

كان الطريق أمامى يمتـد طويلا ، ولا يزال الظلام كما هو حالك السواد ٠٠ اما البرد فلم أعد اهتم به ٠٠ كان الهواء البارد الجاف يلفح وجهى فتدمع عيناى وتسيل انفى ٠٠ ولكن كنت فى حالة طيبة ٠٠ ورغم اننى كنت قد سرت كثيرا على القدمين ، الا اننى أحسست بقليل من التعب ، فمنظر البيوت القليلة المتفرقة التى كنت أصادفها فى طريقى كان يستهوينى ويفرحنى وينسينى التعب ٠٠٠ انه شىء غريب ان يرى الانسان بيوتا بمثل هذا العلو وهذا الجمال ولم يكن فى الشارع احد غيرى ٠٠ لو كان هنالك شخص واحد لما ترددت فى سؤاله عن حى البوارق ولكن يبدو ان الناس نائمون الآن فى بيوتهم ٠

ومضى وقت طويل وأنا سائر فى طريقى دون ان اعرف الى أين تقودنى قدماى ٠ فى أول الأمر لم اهتم كثيرا بهذه المسـألة ، فقد كنت مشغوفا بما أراه رغم الظلام الشديد الذى يطمس المعالم ولا يظهر الاشـياء على حقيقتها ٠٠ ولكنى الآن عرفت اننى سـائر بغير هدف فى شوارع وميادين واسـعة اجهـل من أين تبدأ وأين تنتهى ٠٠ والتعب الذى لم أكن احس به فى أول المشوار احسست به الآن يتسرب الى مفاصل جسمى فيجبرنى على الابطاء فى السير ، بل والتوقف احيانا للحظات اتابعه بعدها فى قليل من الحماس ٠٠

واحساسي بالتعب صاحبه الاحساس بالبرد الذي خلت انني قد تغلبت عليه بفضل جلابيتي الثانية •• اخذت اسناني تصطك وجسدي يرتعش والدموع لا تكف عن الانهيار من عيني •

وقلت لنفسي انه من العبث ان احاول البحث عن منزل خالي في ذلك الوقت ، فما ادراني اين يقع حي البوارق هذا ، لذا اقنعت نفسي دون صعوبة بان احسن ما يمكن ان افعله هو ان اقضي ليلتي الباردة تلك في احد الجوامع حتى اذا جاء الصباح ذهبت أسأل عن حي البوارق وعن بيت خالي •

وحالفني التوفيق في العثور على الجامع •• دلني عليه بائع جوال صادفته في الطريق •• ودخلت الى الجامع ، وصليت ركعتين تحية له ، ثم صليت العشاء وتوسدت ربطتي ونمت •

وفي الفجر استيقظت وتوضأت وصليت الفجر حاضرا ، وحملت الربطة ، وتوكلت على الله وسرت في طريقي •

وظهرت الشمس ، وسررت برؤيتي للناس •• واستطعت ان أرى كل شيء في وضوح •• رأيت المنازل والدكاكين والسيارات الكثيرة والناس بمختلف ملابسهم واشكالهم •• وكانت سعادتي بكل ذلك كبيرة وعظيمة •

وسألت أول من صادفني عن حي البوارق فدلني عليه ، ولم يكن بعيدا ـ كما قال ـ الشيء الذي يضطرك الى ركوب احدى

العربات •• وحمدت الله على ذلك ، اذ لم يكن معى من النقـود ما أنفقه على ذلك •

وواصلت السير • ولكنى لم أصل الى حى البوارق الا بعد أن سألت العديد من المارة • وكانوا فى كل مرة يدلوننى عليه فى شهامة وانسانية •

تذكرت ما قالتـه أمى من ان خالى الطاهر معـروف فى حى البوارق واننى لو سألت عنه لما وجدت صعوبة فى العثور على بيته •• لذلك لم اتردد فى ان اطرق باب أول بيت صادفته •• وسالت اصحاب البيت عن منزل خالى الطاهر ود فضـل المولى •• ولكنهم قالوا انهم لا يعرفونه ولم يسمعوا به • وذهبت الى بيت اخر وسالت اصحابه ان كانوا يعرفون الطاهر ود فضل المولى ، ولكنهم اخبرونى بانهم لا يعرفون احـدا بهذا الاسم •• وطرقت باب منزل ثالث ، وأجابتنى امرأة من الداخـل بأن هذا ليس منزل خالى الطاهر ود فضل المولى •

وقضيت النهار كله ابحث عن منزل خالى ولكن بدون جدوى وشعرت بالجوع ، فانا لم اتذوق طعـاما منذ الفجر •• الزاد الذى كان معى فى الربطة تعشيت به عندما قضيت ليلتى بالجامع • ولم يكن عندى نقود لاشترى بها طعاما •• الحقيقة لم ادر ماذا أفعل •

أخيرا يا زول ، قلت لنفسى اننى سوف اسأل عن بيت خالى للمرة الاخيرة ، وان لم أوفق فسأعود الى بلدى •

وطرقت باب اول بيت وقع عليه نظرى وانتظرت •• وبعد قليل فتح الباب ربع فتحة •• وأطل من هـذه الفتحة رأس امرأة اختفى فى الحال وأغلق الباب •• وفتح الباب مرة آخرى ، ورايت ولدا صغيرا يحمـل بين يديه صحنا به طعـام •• ومد الصحن الى وهو يقول :

ـ هاك يا عمى •

وتناولت منه الطعام •• وجلست على الأرض وأخذت ازدرده والـولد واقف ينظر الى فى عجب •• وبعـد ان آتيت على ما فى الطبق ، قال لى :

ـ اجيب ليك تانى يا عمى ؟

وقلت له وأنا ألحس أصابعى الواحدة تلو الأخرى :

ـ اكان عندكم يا ولدى جيب لعمك تانى •

ولكن الولد لم يحضر لى غير كوز من الماء • شربت وحمدت الله • ثم سألت الولد :

ـ يا ولدى ما بتعرف بيت عمك الطاهر ود فضل المولى ؟

ونظر الى الولد نظرة طويلة صارمة ولكنه لم يفتح فمه • انحنى وتناول الطبق من امامى وهو لا يحول عينيه عن وجهى • وكانت

امه متوارية خلف الباب المفتوح لا يظهر منها غير رأسها • وكانت تنظر الى فى شك وريبة •• ورأيتها تمسك بيد ابنها وتسحبه فى سرعة الى الداخل ثم تصفق الباب بشدة فى وجهى •

نهضت واقفا ، وقلت لنفسى انه لا فائدة من العثور على منزل خالى الطاهر ود فضل المولى ، لذلك يجب أن أسافر الى البلد واقول لأمى اننى لم أجده •



نهاية ذلك اليوم

عندما سمع عبد الكريم جاره حاج دفع الله يقول : « هناك قتلى آخرون من طلبة المدارس » ، أحس فجأة بأن ابنه احمد قد تأخر عن ميعـاده المألوف •• وتذكر كلماته لامه وهو يغادر البيت الى المدرسة : سـوف نقوم بمظاهرة كبيرة تلتحم بالمظاهرات الأخرى »

تأخر احمد وكان المفروض أن يحضر اليـه منذ أكثر من ثلث الساعة ليأخذ معه الى البيت عشاء الليلة كما اعتاد ان يفعل كل يوم منذ شهور كثيرة •• لم يسبب له هذا قلقا عظيما فى أول الامر •• مجرد انزعاج ، لا أكثر •• القى نظرة سريعة الى ربطة اللحم الموضوعة فوق كفة الميزان ، ثم امسـكها بأصابعه وأخذ يتحسسها ويختبر مدى ثقلها •• ووضعها مرة أخرى فوق كفة الميزان •• وتلفت فى ارجاء دكانه الصغير دون اهتمام •• ثم اقترب من جوال الدقيق الفينو وزحزحه قليلا عن مكانه مسافة شبر •• وفرك يديه ومسح على شاربه ولحيته القصيرة وبصق على الأرض •

وخرج من داخل الدكان وجلس فوق السجادة المفروشة على الأرض .. كان الجو باردا رغم ان الوقت كان نهارا .. الشتاء هو فصله المفضل الذى يكون فيه فى منتهى النشاط والحيوية ... وكان يسخر من جاره دفع الله الذى لم يكن يحتمل برودة الجو اطلاقا ما كان يغطى جسمه من ملابس صوفية ثقيلة ، فكان يقول له مداعبا : « يا حاج دفع الله ، تمتع بهذا النسيم اللطيف الذى يرطب الرئتين وينقى الدم فيكسبك القوة ويطيل عمرك ! » . وكان حاج دفع الله يرد عليه فى قوة : « اتق الله يا عبد الكريم ... أهذا نسيم لطيف يا راجل ؟ أهذا نسيم لطيف ؟ » .

ومع هذا ، فقد أحس عبد الكريم بشىء أشبه بالقشعريرة يسرى فى بدنه .. لم يكن يدرى ان كان هذا بفعل البرد او بفعل شىء آخر ، ولكنه ، مؤكد ، احس بالقشعريرة .

نهض واقفا والتفت الى حاج دفع الله .. كان الرجل يحك ظهره بعصا طويلة وهو جالس على بنبره امام دكانه .. اقترب منه فى خطوات بطيئة متثاقلة ، ثم امتدت يده لتمسك بالعصا التى كان حاج دفع الله يهرش بها ظهره وقال له :

ـ الولد لم يحضر حتى الآن يا حاج دفع الله .

ولكن حاج دفع الله لم يعط الأمر أهمية ما .. عاد الى حك ظهره بالعصا وهو يكرمش جلد وجهه ويظهر اسنانه المتآكلة .. ولكنه قال أخيرا :

– يا راجل ، الغائب حجته معاه •• انتظر •• ولدك لم يتأخر كثيرا •

كانت الخرطوم فى ذلك اليوم من اكتوبر تبدو حزينة ••• لم يحدث ان خلت شوارعها هكذا من الناس •• لم تكن الوجوه على تلك الصورة من القلق •• الناس انفسهم لم يعودوا يتحدثون ويتشاجرون ويضحكون كما كانوا يفعلون من قبل ••• اصبحوا اكثر صمتا وعزوفا عن الكلام • ومع ذلك فقد كان هناك شيء تنطق به وجوههم القلقة ، ويعبر عنه صمتهم الغريب المريب •• شيء بدأ يحس به عبد الكريم فى نفس اللحظة التى شعر فيها بالقشعريرة تسرى فى جسده •

عاد الى دكانه ••

وامتدت يده مرة أخرى الى ربطة اللحم الموضوعة على كفة الميزان • عشاؤهم اليوم دمعة مع دسم كثير اشتاقت نفسه اليها ، وتحدث بذلك الى آمنة زوجته التى تجيد طبخها بحذق وفن ••• كان يحب دائما أن يأكل ما تطبخه يداها •• وكان يطرى ماتصنعه من اصناف الطعام اطراء كثيرا تخجل ان تسمعه ولكنها كانت تسر به وان لم تفصح عن ذلك أبدا •• وعبد الكريم يعترف بانه رجل يهوى الاكل •• فى الحى الذى يعيش فيه يعرفه الجيران والاهل والاصدقاء كذواقة عظيم لاينافسه احد فى هذا المجال •• ويعرفون أيضا الكثير من ابتكاراته فى عالم الطعام •• يقولون ، مثلا ، انه اول

من خلط الكبـدة بالمكرونة (كان ذلك فى وليمـة اقامها بشـير عبد الرازق بمناسبة تأهيل ابنه سعد) ، فنتج عن ذلك لون مدهش من الطعام اقبل عليه الناس فى شراهة ونهم وأصبح تقليدا يتبع فى كل ولائم ذلك الحى وما جاوره من أحياء •• لم يحدث ان عافت نفسه الطعام •• شهيته دائما مفتوحة ، وصحته دائما جيدة ، وبينه وبين امراض سوء الهضم أميال وأميال •• وهو يحمد الله على كل ذلك ، ولا يجحد فضله ولا يغتر بنعمته •

ولكن فى ذلك اليوم من اكتوبر ••

فى ذلك النهار ، نسى عبد الكريم كل شىء عن « دمعة اللحم » التى كان يمنى نفسه بها فى العشاء ، وطفق ينظر الى ربطة اللحم نظرة فاترة باردة فيها الكثير من عدم الاكتراث •• ضاق به الدكان •• لم يعد يحتمل ان يظل به كل هذا الوقت •• القشعريرة التى كان قد احس بها منذ ساعة ، تملكت جسده كله وانقلبت الى رجفة اصابت كل عضلة فيه •• وأخذ العرق ـ رغم برودة الجو ـ يخترق مسام جلده الاسـمر ويغرق يديه وصـدره ووجهه •• ولأول مرة شعر بأن فى الامر شيئا •

وخـرج من الدكان ، والتفت الى حاج دفع اللـه •• كان الرجل يشرب فنجانا من القهـوة غير عابىء بشىء • واقترب عبد الكريم منه فى خطوات سريعة مضطربة ، وصاح فى وجهه :

ـ يا حاج دفع الله ، الولد لم يحضر الى الآن !

ولكن حاج دفع الله لم يفتح فمه الا بعد ان افرغ باقي محتويات الفنجان في حلقه ومصمص شفتيه وتجشأ :

– يا عبد الكريم .. باء .. باء ، الغائب .. باء .. حجته معاه !

ولم يقل عبد الكريم شيئا .. ما قاله حاج دفع الله بدا له استفزازا صريحا لعواطفه .. لو كان احمد ابنا له ، ابنا ليس له غيره ، لما قال هذا الكلام ، ولما ظهر على تلك الصورة من الاستهانة والاستخفاف .

في صمت وخوف حقيقي اخذ يتمشى امام دكانه وعيناه تنظران الى الأرض .. كان في حالة من القلق .

لكن ذلك القلق كان لا بد ان ينتهي على صورة ما .. هو نفسه مقتنع بذلك .. شوارع الخرطوم الحمراء تؤكد له طبيعة النهاية .. الهتافات التي أخذت في تلك اللحظة تشق الفضاء وتنطلق من آلاف الحناجر لم تترك له مجالا للشك .. واقتربت المظاهرة الكبيرة من الشارع الذي يقع فيه دكانه .. ولمح وجوه الآلاف وهي تدنو منه وهتافاتها المدوية تصك سمعه .. احس بجفاف في حلقه ، وبخفقان لا قبل له به .. وارتجف جسمه كله في قوة ، وشعر بأن ساقيه قد ضعفتا ولم يعد بمقدورهما حمل جسده الثقيل المتين واقتربت الظاهرة اكثر واكثر .. انكمشت اصابع يديه ، بلل شفتيه الجافتين . وتقدم خطوة الى الامام وقد صغرت عيناه وتقلص وجهه .

ومرت بذهنه صورة ابنه احمد •• كانت الهتافات تشده اليها في قوة جذب غريبة •• تقدم خطوتين ، وتطاول بعنقه ، يحدق في كل الوجوه وكأن احمد مدسوس بينها •• وبلع ريقه ، وتقدم خطوات وخطوات •• وبدون ارادة ، وبدون تفكير ، وبدون وعي ارتفع ساعده الايمن الى أعلى مع آلاف السواعد المرفوعة•• وانطلق هتاف من حنجرته يردد مع آلاف الحناجر الهادرة•• واختفى وسط الجموع •• لم يرفع رأسه لينظر الى دكانه والى حاج دفع الله القابع في بنبره يحك ظهره بعصاه الطويلة •• لم يعد يحس بالقلق الآن، ولا بتلك القشعريرة التي انتابته منذ ساعات •• واختفت صورة احمد من ذهنه كلية ولم تعد تسبب له كل ذلك الانزعاج والقلق•

وابتعد عن دكانه وعن الشارع الذي يقع فيه •• ومضى وقت طويل قبل ان يلمح مظاهرة أخرى من الشباب الصغير بقمصانهم البيض وارديتهم الكاكي وهم يتجهون نحوهم وهتافاتهم تدوي من بعيد ••• هنا لم يتمالك نفسه •• اندفع في قوة الى الامام ليتقدم الجماهير الهادرة ويقود المظاهرة بنفسه •• وافسحوا له الطريق وحملوه على اعناقهم •• والتفت الى الأولاد ، وأخذ ينظر اليهم متفحصا وكأنه يبحث عن شخص بعينه •

واكتسبت هتافاته قوة جديدة ، وأخذت تعبر عن معان اخرى لم يسبقه اليها احد مما جعل كل ذلك الحشد ينصت اليه في تكبر واجلال •

ولكنه احس بالارهاق •• خارت قواه ، وكاد ان يسقط على الارض لولا ان انزلوه برفق من فوق اكتافهم وحملوه الى ظل جدار قصير • وهناك تركوه ممددا على الأرض بعد ان بللوا وجهه بالماء •

وعندما افاق من اغمائه ، نهض واقفا ونظر فيما حوله • كان النهار قد انقضى وبدأت الشمس في الغروب . كان يحس بألم في كل مفصل من جسمه وبظمأ قاتل وبرغبة في القيء ، ولكنه احتمل كل ذلك في شجاعة •• اخذ يسير ببطء على الأرض الموحلة التي تمتد حتى الشارع المرصوف الذي يبدأ من نهايته شارع منزله •

عندما قطع نصف المسافة توقف عن السير وجذب نفسا طويلا من الهواء وحاول ان يتذكر ما حدث في ذلك النهار ، وتابع السير مرة اخرى وقد بدأ يحس بالرجفة تتملك جسده من جديد •

فهرس

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر